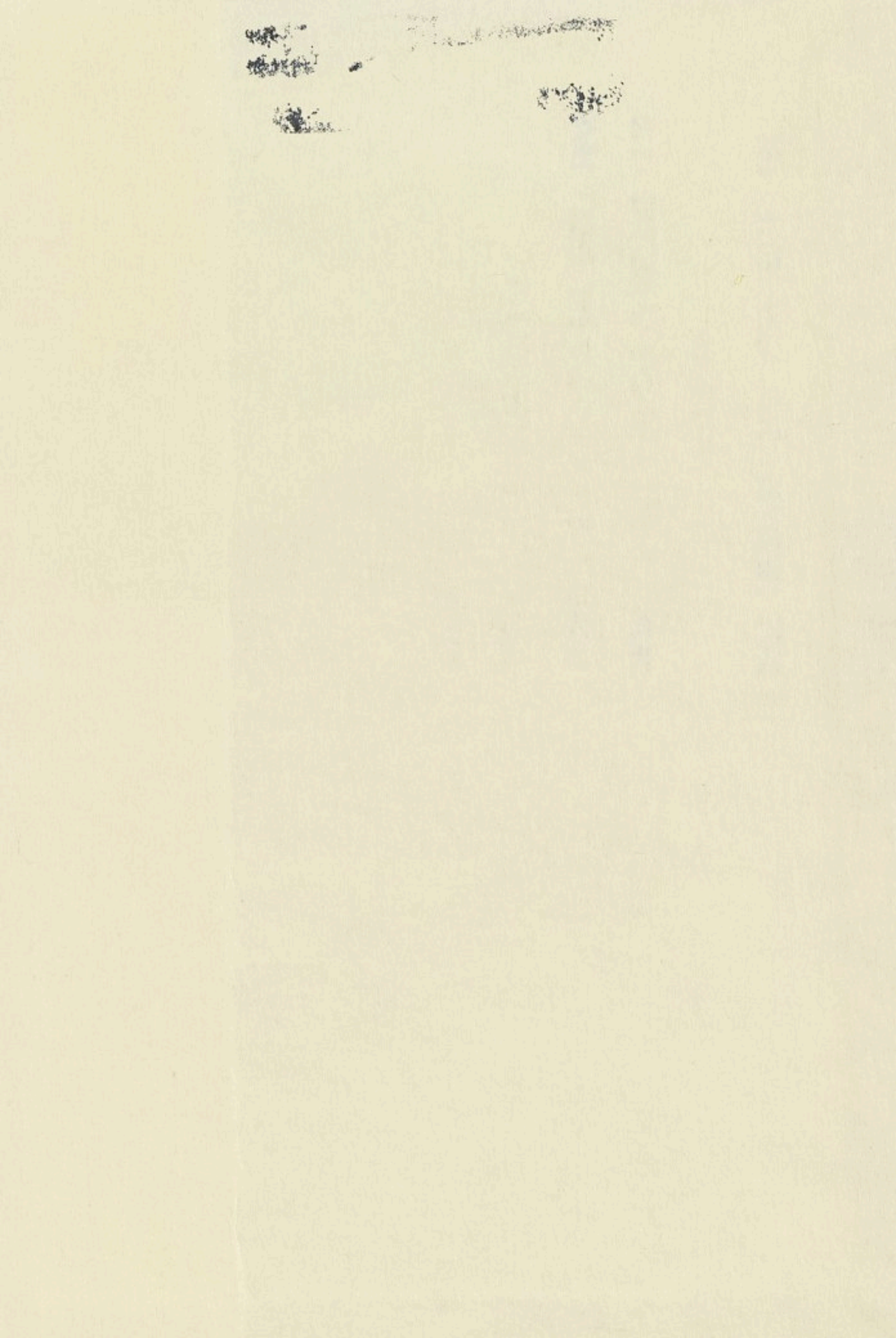
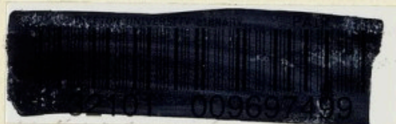



[redacted]

الجزائر

قصة كفاح الشعب الجزائري في سبيل حريته واستقلاله
منذ فجر التاريخ حتى اليوم



الطبعة الثانية

حزيران ١٩٥٥

دار

الثقافة العربية

تقدم

سلسلة تاريخ

الإستعمار الأوروبي في البلاد العربية

١

الجزائر

قصة كفاح الشعب الجزائري في سبيل حريته واستقلاله

منذ فجر التاريخ حتى اليوم

نشر

مكتبة الاقتصاد

بحلب

الطبعة الثانية

حزيران ١٩٥٥

يطلب من

مكتبة الاقتصاد

عبد السميع عفش

حلب - باب النصر

هاتف ١٢٧٧٣ - ص.ب ٤١٥



مقدمة

أخي العربي

(... الاستعمار نظام استغلالي جبري للجماهير الانسانية الغفيرة ، اساسه الظلم ، والظلم والطغيان هما عماد تمركزه .) بهذا عرّف «أيميه سيزار» الاستعمار ، ومهما موّهت هذه الفكرة وحوّرت فستبقى محاولة التمويه والتحوير خداعاً قليل الحظ من النجاح ، والقول بأن الاستعمار مظهر ديناميكي للحضارة اكذوبة تحتاج الى المزيد من البراهين لدعمها . وها هو «السيد البير سارو» الاستعماري الفرنسي الثائر يقول : (... دعونا من الخداع والمخاتلة فما نفع تمويه الحقيقة ؟ ان الاستعمار لم يكن منذ البداءة حركه حضارية بل كان حركه قوة نفعية ، انه مرحلة صراع من اجل الحياة ، صراع التزاحم الحيوي الكبير الذي انتقل من الاشخاص الى الجماعات ومن الجماعات الى الامم وراح ينشر ألويته فوق العالم الفسيح . ان الشعوب التي تبحث في القارات البعيدة عن مستعمرات لا تفكر في بادىء الامر إلا في نفسها ولا تعمل الا لقوتها ولا تغزو إلا لصالحها ، انها تبحث

في هذا كله عن منافذ تجارية او نقاط ارتكاز عسكرية وسياسية . ان الاستعمار ليس عملية اغتصاب فقط ، انه عملية اغتصاب هائلة عملية ابادة شعب ليحل مكانه شعب آخر . هو الفتح البربري المرفوق بالقتل والنهب والذبح) .

. . .

فالاستعمار وليد الاغتصاب لا يستطيع ان يبقى على الحياة الا بالاغتصاب والاستعمار لا يحمل الارهاب ويسير على مبدأ الاغتصاب والنهب والتقتيل وانما يحمل الاهانة للانسان والكراهية له ، هو انقلاب مرعب لأحط الغرائز الانسانية .

ان الاستعمار لم يمت ابداً ، انه يتفنن بتجديد اشكاله كالانتداب والحماية والوصاية والمجال الحيوي والحد الثقافي المشترك والمساعدات الفنية والمصالح المشتركة والمواقع الستراتيجية ، فهو يسير من سياسة الفتوح الى سياسة الادماج الى سياسة الاستغلال فالتكتلات فالاتحادات الى سياسة دفع الخطر المشترك .

بهذه الروح الواعية لاخطار الاستعمار تتابع دار الثقافة العربية نشر هذه الدراسات عن تاريخ الاستعمار في البلاد العربية وغرضها من ذلك تصوير نضال شعوب البلاد العربية في سبيل حريتهم وتصوير الفواجع والمآسي التي نزلت بالعالم العربي نتيجة لهذا النوع من الفتوح ، وتحليل الاخطار المحيطة به مما يحيكه الاستعمار له بأثواب جديدة براقة .

واذا بدأنا سلسلتنا العزيزة هذه بقصة الجـــزائر الشهيدة فلسطين المغرب فلأن الجزائر هي البلد العربي الوحيد الذي ذاق طعم الاستعمار مبكراً ، واي استعمار ؟ الاستعمار الفرنسي الغاشم ، ولاقى من تنكيله الشيء الكثير ، وسنكتب في حلقـات هذه السلسلة المقبلات قصصاً اخرى عن الاستعمار في بقيـة انحاء الوطن الخالد .

• • •

ومهما يكن من امر ، ومهما بلغ الاستعمار في التجديد فان ايامه قد ولت ، لقد هدمه الوعي القومي ولن يقوى على الصمود ومقاومة الانهيار ، وما هذا التكالب الذي يظهره على التمسك ببقايا ارثه القديم : الا دليل الوهن الذي يعترى اوصاله .

• • •

والمغرب العربي ـ والجزائر درته ـ جزء من العـالم العربي المفدى هذا العالم الكبير الذي تمتد ارضه الطيبة من حـــدود الاطلسي الى جبال ايران ، يضم اخوة فرقتهم الدار وجمعتهم المشاعر والعواطف وأواصر النسب والدين واللغة والتاريخ منذ اصبح الاطلسي الحد الغربي لوطنهم الكبير المفدى هذا .

وليعلم الغرب بأن كل بلاد تنطق العربية بلادنا مهما بعدت الشقة ولا بد ان تحرر بلادنا مهما تلونت مشاريع الغرب وتوهج بريقها . وليعلم الغرب المستعمر لبعض بلاد العرب بان العرب

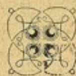
اخوة ولا بد ان يتعاون الاخوة في البأسأ والشدة وان يطردوا المستعمر وان يتحرروا من مشاريعه مهما طال الزمن .

امة واحدة تسعى لهدف واحد وحدة العرب وحريتهم ، تؤمن بالحق وتدعو الى الخير وتسعى لنشر السلام وتدفع البغي والعدوان والظلم اينما كان .

يدفعنا الى ذلك ايماننا بالحرية وماضينا العامر بالمفاخر وتمسكنا بالقيم الانسانية الرفيعة ، لهذا نفضح الاستعمار وننشر مظالمه .

عن لجنة النشر – **محمد رشدي الجندي**

ليسانس في الآداب



تعريف الاستعمار

ظهر الاستعمار الحـديث Imperialisme في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بسبب المنافسة بين الدول الاوربية الكبرى ولا سيما بعد حرب السبعين التي حدثت بـين فرنسا والمانيا ، وكان الغرض منه تدعيم السياسة القومية وتقـويه السياسة الخارجية ونشر النفوذ الاقتصادي .

وقد عرف القرن السادس عشر والسـابع عشر نوعاً آخر من الاستعمار Colonisation حدث على اثر الاكتشـافات الجغرافية الكبرى التي قام بها البرتغاليون والاسبان ، وكان الدافع الى هذا النوع من الاستعمار السعي للحصول على الثروة من البلاد الجديدة والتخلص من الاضطهادات الدينية كما حصل للبورتيان الانكليز الذين رحلوا من ايرلندا وانكلترا وشكلوا العنصر الاساسي لسكان الولايات المتحدة والبروتستانت الذين غادروا البلاد الكاثوليكية . اما اسباب الاستعمار عامة في كل عصر وفي كل مكان فهي البحث عن المواد الاولية للصناعة كالقطن والصوف والفحم والحديد والبـترول والكاوتشوك . والسعي لايجاد اسواق لمنتوجات المصانع الرأسماليه ، وايجـاد المشاريع الجديدة في المستعمرات لاستثمار رؤوس الاموال الفائضة عن حاجة البلاد المستعمره . والتقليل من كثافة النفوس كما ادعت ايطاليا او تأمين الطريق الى المستعمرة كماحدث في القرن الاخير لانكلترا و فرنسا .

لمحة تاريخية عن المغرب العربي

تضم كلمة « المغرب العربي » كل القسم المعروف باسم تونس والجزائر ومراكش ، اي الاقطار الثلاثة دون ليبيا ومصر ، فاذا ضمت اليها ليبيا ومصر عرفت باسم الشمال الافريقي .

ويقسم المؤرخون الجغرافيون المغرب العربي الى ثلاثة اقسام:

المغرب الادنى والمغرب الاوسط والمغرب الاقصى بالنسبة للمشرق العربي ، ولهذه البلاد ظروف تاريخية متشابهة منذ أقدم العصور ، فقد امتزج تاريخها منذ القـــديم بتاريخ الفينيقيين والقرطاجين والرومان والفاندال والبيزنطيين حتى كان الفتح العربي .

(ومنذ سنة ٦٦٨ م سمح معاوية لعقبة بن نافع الذي كان مقيماً ببرقة بدخول افريقية وقد أمده بعشرة آلاف جندي) وتعني كلمة افريقية بهذا النص التاريخي المغرب العربي .

وفي سنة ٦٧٠ م وفق عقبة بمعاونة البربر الى القضـاء على الحكم النصراني في شمالي افريقية جملة واحدة ثم عزل بعـــد ان انشأ مدينة القيروان « وهي في تونس اليوم » .

واعيد عقبة ثانية سنة ٦٨٢ م وسار بحمله جـــديدة نحو المغرب (اي نحو الجزائر ومراكش) حتى وصل ساحل المحيط الاطلسي وقال كلمته المشهورة ومنذ ذلك الحين فصلت ولاية المغرب عن مصر واصبح عقبة عليها والياً واعتقد العرب انهـا نهاية العالم .

ولقد حدد هذا الفتح العربي (الجديد) قوميتها ، العربية المشتركة التي توصف بها منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف ، حيث اصبحت منذ ذلك التاريخ عربية اللسان عربية القلب ، ولم يلبث اهل تلك البلاد ان اعتنقوا الاسلام لقربه الى فطرتهم وحياتهم واعتبروا انفسهم منذ الفتح الاسلامى جزءاً من الشعب العربي المسلم .

• • •

والمتصفح لتاريخ المغرب العربي يشعـــر شعوراً عميقاً بالمقاومات العنيفة التي كان يواجه الشعب المغربى بها كل فاتح اجنبي لهذه البلاد ويدهش كيف ان الاسلام مع كل هذا صبغ هذه الارض بدينه وعروبته ، وكيف امتزج الدم واتصـــل النسب وارتبطت القلوب وتوحدت العواطف .

وبعد نصف قرن فقط من تاريخ هذا الفتح اصبح اكبر قائد عربي يغزو دار الفرنجة لاعلاء كلمة الاســلام من ابناء المغرب ومن ابناء البربر سكان البلاد الاولين وهو طارق بن زياد وما فتح طارق المغربي البربري اسبانيا وانما فتحها طارق العربي

المسلم ومنذ ذلك الحين لم يعد بين اهل المغرب غريب عن هـــذه القومية الغالية التي تنتظم كل العرب في شتى اقطار الارض .

. . .

وبقي امراء قيروان امراء المغرب العربي وحكامه حتى دخل عبدالرحمن الداخل الاندلس ونادى بالخلافة لنفسه وأمه بربرية فتبعه ادريس بن عبدالله بن الحسن وأقام نفسه على مراكش والمغرب اميراً وهويمت برحم ايضاً الى البرابرة ثم كانت دولة الفاطميين في المهدية بتونس ثم كانت دولة بني باديس الفهاجيـــين التي غلبت الفاطمين على ما كان بأيديهم من بلاد المغرب بعد ان رحلوا عنهـا الى مصر ثم حكومة الملثمين من بني تاشفين والموحدين من بـني عبد المؤمن .

ثم عاد الى الحكم العلويون واليهم تنتسب الاسرة الحاكمة في مراكش اليوم والتي نفى الفرنسيون آخر ملوكها محمد بن يوسف منذ عامين .

. . .

وظل المغرب العربي على هذا الحال حتى وقع الغزو التركي في مستهل القرن السادس عشر ومهد السبيل للاستعمار الاوروبي ، ولقد وقع اول صراع بين المغرب العربي والمستعمرين الاوروبيين عندما وقعت مأساة الاندلس ، منها جر بعض الاندلسيين الى المغرب العربي وهم يأملون بالعودة الى ديارهم . وكانت اصداء المظالم

التي يوقعها الاسبان بالعرب تصل الى اسماع المغاربة فتزيد الكراهية والبغض للرجل الاوروبي في قلوب سكان المغرب العربي .

وتحقق خوفهم هذا عندما افلس الاوروبيون من المشرق وقدسه بنتائج الحروب الصليبية فأرادوا ان يعوضوا عن ذلك بفتح المغرب العربي ليلاقوا به - حسب ظنهم - المسلمين المستضعفين ، وما كانت حملة المغاربة الصادقة على الصليبيين أقل ضراوة على حملة المشارقة فتركوا قبر لويس التاسع في قرطاجة شاهداً على ما لقيه الاوروبيون من خسران في سبيل صليبيتهم على المغرب العربي ، رغم انهم حققوا حلم القديس لويس في القرن التاسع عشر بفتح المغرب العربي وسنستعرض خلال الصفحات المقبـــلة قصة اولى فريساتهم .



جغرافية الجزائر

تنحصر بلاد الجزائر بين البحر الابيض المتوسط شمالاً والصحراء الكبرى جنوباً وتونس وليبيا شرقاً ومراكش وافريقية الاستوائية غرباً .

تبلغ مساحتها /٢،٢٥٠،٠٠٠/ كيلو متراً مربعاً وحدودها هذه منذ القرن الثالث ق.م ، فهي من اوسع اقطار الشرق الادنى ومساحتها تبلغ اربعة اضعاف مساحة فرنسا واكثر من عشرة امثال مساحة سوريا وستين مرة مساحة سويسرا !..

تقسم الجزائر الى منطقتين المنطقة الجبلية الاطلسية ومساحتها قدر مساحة سوريا تقريباً /٢٠٧/ الف كيلومتراً مربعاً ، ومتوسط ارتفاع الجزائر العامة عن سطح البحر يزيد عن /٥٠٠/ متراً ويندر ان نجد سهولاً غير السهول الساحلية يقل ارتفاعها عن مائتي متر . يتأثر مناخها بثلاث مؤثرات : المحيط الاطلسي والبحر الابيض المتوسط والمرتفعات والمنخفضات المحلية ، وتجتاحها رياح من المتوسط شمالية واخرى من المحيط غربية وثالثة من الجنوب صحراوية (السيروكو) والمجرى الوحيد الذي يأخذ شكل نهر هو مجرى نهر الشليف الذي يزيد طول مجراه عن /٧٠٠/ كيلومتر.

وتقسم الجزائر ادارياً الى ثلاث مقاطعات هي :

وهران ومركزها وهران وتتبعها : معسكر ، مستغانم ، سيدي ابو عباس ، تلمسان .

الجزائر ومركزها مدينة الجـــزائر وتتبعها : ميدية ، ميليانه ، اورلئان فيل ، تيزي اوزو Tizi ouzou . قسنطينة

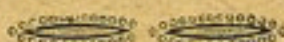
وفي هذه المقاطعات جميعاً حوالي سبعة ملايين نسمة عدا الجيوش الفرنسية . يضاف اليهم سكان الجزائر الجنوبيين وعددهم قرابة مليون ، واذا اضفنا اليهم مليوني دخيل اجنبي كان عدد سكان الجزائر حسب آخر الاحصاءات /١١/ مليون نسمة بينهم جاليات اسبانية وايطالية ومالطية ويهودية تقطن اكثرها الاماكن الخصبة وتشكل الجاليات الفرنسية ٨٦ ٪ منها .

وقد قطنت هذه الجاليات الجزائر منذ القرن /١٦/ لاستغلال خيراته ، وقد تضاعفت في ايام الحكم الافرنسى عدداً وثروة .

وتحتل الحبوب المكان الاول في الزراعة ثم تنتشر الحلفا والكرمة حتى اصبح النبيذ مورد ثروة للجزائر فهي رابع دولة في انتاجه ، وكذا تشتهر بتربية المواشي وتصدر مليون رأس غنم ، ومساحة المزرع من الجزائر /٢٠/ مليون هكتار ، وتشتهر باستخراج الفحم والحديد والرصاص والزنك وتقتصر الصناعات على المعاصر والمعجنات والكونسروة والاسمنت والسجاد والجلود والبرانس . وتصدر المواد الاولية الى فرنسا وتستورد المنتجات الصناعية .

وفيها شبكة حديدية طولها /٤٨٠٠/ كيلومتراً وفيها /٣٥٠٠٠/ كيلو متراً طرق للسيارات ، ومطار مدينة الجزائر من المطارات الهامة التي تصل افريقيا بأوروبا والى جانب هذا كله فالجزائر بلد سياحي لا يقل اهمية عن سويسرا فالطبيعة الجميلة الخصبة الغنية ، والمناخ المختلف والجبال الوعرة والسهول اللاينة واحداث التاريخ صاغت ماهية النفس الجزائرية على حقيقتها اما سكانها فيرجعون الى اصلين اساسيين الحاميين الشماليين وهم البربر والى ساميين وهم العرب وكان البربر يؤلفون الاكثرية الساحقة قبل الفتح العربي ولا تزال ميزات العناصر الشمالية ظاهرة واكثر القبائل البربرية ذات الدم الصافي مقيمة في جبال اطلس ولقد كان تأثير العرب قليلا من البربر اسكنى العرب في المدن اكثر من الجبال .

وقد ابتدأ انتشار الدم العربي ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادى وتابع عملية الامتزاج خلال القرنين الثاني والثالث عشر بعد ان اخذت كثير من القبائل العربية تهاجر بقضها وقضيضها الى المغرب العربي واهمها بنو سليم وبنو هلال الذين لم يقيموا في المدن وانما اقاموا في الجبال مع قبائل زناته البربرية .



الجزائر قبيل الاحتلال العثماني

ان غرب البحر الابيض المتوسط يعرض علينا لوناً آخر من الوان الصراع بين الغرب والشرق في العصر الحديث ، ويكشف لنا عن نواح اخرى من العلاقات بين الجانبين تختلف عما نراه في شرق البحر الابيض المتوسط . فالحروب الصليبية لم تكن مقصورة على الشرق وحده وانما شملت ايضاً غرب البحر الابيض المتوسط فثارت بين المسلمين في الاندلس والنصارى في الشمال حروب طويلة تعرف بحروب الاسترداد Reconquista حروب لا تقل اهمية عما دار في الشرق بين الاسلام والنصارى ، واكثر من هذا فقد كانت الروح الدينية فيها اغلب واظهر ، فالحروب الصليبية التي استقرت في الشرق انتقلت من الشام الى مصر ومن مصر الى تونس والجزائر وهنالك اقامت حتى اوائل القرن التاسع عشر حين انتهت بانتصار الغرب ـ فرنسا ـ واحتلال الجزائر وبدء استعمار افريقيا .

لقد كان المغرب العربي طوال العصر الوسيط ومطلع العصر الحديث مسرحاً لحروب كثيرة لا تسكن ريحها وصراع متأجج لا تهدأ ناره ، وليس غريباً ان نرى الفريقين يسلكان مختلف السبل للوصول الى النصر دون النظر الى مباح وغير مباح .

وبهذا اصبح المغرب ميدان حرب دائمة واصبح اهله يمتهنون القتال كمهنة واصبحت موانئه معسكرات للجند اكثر منها مدن طبيعية هادئة .

لقد كان لزاماً على دويلات المغرب ان تحارب الاسبانيين والبرتغاليين والفرنسيين الذين اتجهت هممهم الى استعمار المغرب العربي ان يحاربوا كل هؤلاء المستعمرين المتهالكين على استعمار المغرب الموزع بين الحفصيين في تونس وبني عبدالواد في الجزائر ومراكش ان يحاربوا كل هؤلاء الذين افاقوا على الاستعمار بشراهة يريدون أرض المغرب العربي الخيّرة بتربتها وموقعها ومعادنها فكان طبيعياً ان تنهار مقاومة هذا الشعب الضعيف بعد طول صراع وان يصعب اتحادهم لتكوين جبهة واحدة ، فظلوا متنافرين يحتربون فيما بينهم فيفسحون المجال للتدخل الاجنبي .

لقد استطاع الاسبانيون ان يحتلوا جزءاً عظيماً من ساحل الجزائر وحصنوه بحصون منيعة . وكان بنو عبدالواد والحفصيون والعشائر قد استماتوا في دفاعهم ولكن دون جدوى .

. . .

واضاف سقوط الاندلس في ايدي الاسبانيين متاعب جديدة الى سكان الجزائر حيث حملهم تبعات كبرى تجاه اخوانهم النازحين اليهم من الاندلس ، عندما بدأ الاسبان والبرتغاليون النصارى يذيقون المسلمين الاندلسيين الوان العذاب .

ولم يقتصر الاسبانيون على ذلك بل اخذوا يجوبون البحار ويحطون على سواحل بلاد المسلمين فيخطفون اولادهم وينهبون سفنهم ويخربون المدن فلم يكن سبيل الى اقامة السلم بين نصارى الاسلام الكاثوليك ومسلمي المغرب العربي حيث اصبح النهوض لانقاذ المسلمين من اسبانيا واجباً دينياً يتحتم على كل مسلم ان يقوم به .

فلا غرو اذا قام اهل المغرب عامة والجزائريون خاصة بالغزو والحرب البحرية غير النظامية التي كانوا يقومون بها والتي يخطىء الكثير من المؤرخين الاوروبيين فيسمونها قرصنة او لصوصية وهي ليست في الواقع الا حرباً دينية من الحروب التي قام بها المغاربة دفاعاً عن الاهانه التي انزلها الاوروبيون الصليبيون الاستعماريون بأبناء دينهم الاندلسيين .

فالاسلام يعتبر بلاد النصرانية كلها دار حرب ، يباح الغزو فيهـا ويستحل السبي في ارضها ، وفي الحقيقة لم يفعل المغاربة اكثر مما فعله البرتغاليون في ذلك الحين من قرصنة ولصوصية وفي الواقع فان سكان غربي البحر الابيض المتوسط على تعدد اجناسهم واديانهم كانت تمارس القرصنة كمهنة تعتمد عليها في معاشها وقد كانت لهم اعشاش كثيرة في مدن ايطاليا التجارية وموانيء فرنسا واسبانيا ، والحق انه لم يكن المسلمون وحدهم يهاجمون سفن الاسبانيين والانكليز والهولانديين بل كان الاوروبيون يهاجمون بعضهم بعضاً فالقرصنة اصل مجد البحرية الانكليزية فلا غرابة اذا وجد بعض

القراصنة في شواطىء المغرب العربي .

. . .

ولقد هدأ اهل الجزائر وازدهرت بلادهم في اواخر القرن الخامس عشر بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ م حيث ان معظم النازحين من الاندلس كانوا من الصناع المهرة ومن المتمدنين الذين تذوقوا الحضارة والاستقرار ، فأخذوا يمارسون صناعاتهم القديمة الجميلة في وطنهم الجديد ولكن الاحوال المضطربة كانت تدعو حكام الجزائر الذين هم من الثعالبة الى احد امور ثلاثة :

١- الى توجيه قواهم كلها نحو البحر لمحاربة القرصنة الاوروبية.

٢- او التسليم للاسبان الذين أتوا يغزون بلادهم بقيادة (بدرو نفارو) الذي كان لا يفتأ يهدد البلاد بمدافعه .

٣- او الدخول في حماية احد كبار الملاحين المسلمين الذين دانت لهم البحار والثغور الاسلامية كلها في ذلك الحين ومعنى هذا كله ان تهمل ما بدأته من تحضر وان تنصرف الى الحرب مهما كانت الاسباب والنتائج .

هذه هي الظروف التي دفعت المغرب الى احضان الدولة العثمانية .

ولم يكن هدف العثمانيين نشر الامن والاستقرار والرخاء في البلاد كما كان هدف العرب ايام فتحهم للمغرب وانما كان هدفهم استغلال تلك البلاد ـ باسم الدين ـ شأنهم في المغرب شأنهم في المشرق ولهذا تركوا الحكم المحلي بيد الاغوات والدايات المحليين ، ومن هنا كان الحكم العثماني نكبة على المغرب ـ كما كان على المشرق العربي ـ لا رحمة له ونعمة كما يحسب كثير من البسطاء وقد تم الفتح العثماني المغرب العربي على الشكل التالي :

استنجد الثعالبة حكام البلاد الجزائرية برجل ملاح مسلم عثماني التبعة اسمه « عروج بن يعقوب الملقب ببربروس الاول » لرد هجمات الاسبان .

لقد نشأ عروج هذا في جزيرة المـــدلي (متلين) في بحر الارخبيل ولما اشتد ساعده في الملاحة انفصل عن السلطان واتجه الى المغرب يريد القرصنة عوضاً عن المـــلاحة في المشرق . وبدأ يمارس القرصنة فذاع صيته في البلاد فأعتبره السلطان بيازيد مجاهداً في ارض النصرانية طالما كان يهاجم سفن المسيحية الاوربيين . ودخل في خدمة الدولة من جديد بعـــد ان اسر وفك اسره ، واعجب به ابن السلطان بيازيد وكان وزيراً للبحرية . ومن غارات بربروس على ثغور اوروبا تجمعت له ثروة عظيمة .

ثم طلب من سلطان تونس محمد بن حسن الحفصي ان يدخل الثغور التونسية فرحب السلطان به ترحيباً كبيراً وعندها لحق به

اخوه (خيرالدين بربروس الذي نقل في مدى ثلاثة اشهر عدداً كبيراً من مسلمي الاندلس المهاجرين الذين سمح لهم فرديناند بالنزوح) وهذا ما جعل صيته يملأ الآفاق ، وهذا ما جعله يتدخل بشؤون تونس حتى ضمها للدولة العلية الدولة العثمانية ، ويلاحظ ان خير الدين كانت تسيره فكرة دينية صادقة وهذا ما دفعه الى ان يضع نفسه تحت تصرف السلطان في الوقت الذي كان الولاة يعلنون انفصالهم عن السلطان فخلع عليه السلطان سليم لقب باشا وامير الامراء وساعدة بستة آلاف جندي استطاع ان يغزو بها الجزائر في مايس سنة ١٥٢٩ وبقية تونس في آب سنة ١٥٣٤ فـدخل المغرب العربي كله عن طريق خير الدين في حوزة الدولة العثمانية.



الجزائر تحت حكم الاتراك

كانت ادارة الجزائر وبقية انحاء المغرب العربي تسير على نفس الطريقة التي سار عليها العثمانيون في ادارة ولايات المشرق العربي والعالم الاسلامي .

فكان يمثلهم في الجزائر باشا يعتمد في قوته على جند من الانكشارية مقسمين الى اوجاقات يرأس كل اوجاق آغا وكان المغرب كله يقسم الى اربعة إيالات : الجزائر ، وتيطرى ، وقسطنطينه ووهران ، يحكم كلا منها باي يرجع في شئونه الى كبير البكوات في الجزائر نفسها ، ولاهل البلاد مجلس يسمى مجلس الشورى او الديوان يجتمعون فيه لانتخاب البايات والتشاور في شئون الادارة العامة .

وبتوالي ورود المهاجرين النازحين من الاندلس تكونت في البلاد فرقة بحرية حربية هامة من الجزائريين والتونسيين قسمت الى طوائف يرأس كلا منها قائد اسمه (الريس) .

وبهذا الترتيب الجديد تراجعت اوروبا عن غزواتها الاستعمارية الاولى عن المغرب عامة وعن الجزائر خاصة .

وقد ساعد على ذلك انشغال اسبانيا بحرب مع فرنسا حيث استغل المسلمون هذه الحرب فبدأوا الاغارة على شواطىء اسبانيا وفرنسا عائدين بالاسرى الذين كانوا يضاعفون البحرية الجزائرية وبالغنائم الوفيرة التي كانت تنمي البحرية الجزائرية وقد ادركت الجزائر في ذلك الحين شأواً عظيما من الرفعة والمجد ، ولكن هذه الدولة كانت تحمل في اطوائها عوامل ضعفها وانهيارها لانها لم تكن تعتمد على جند مخلصين قدر اعتمادها على هؤلاء الاسرى ، وكذا لم تكن تعتمد على موارد ثانية قـــدر اعتمادها على اتاوات الدول الاوروبية وجمـــدت في التطور الاجتماعى والفكري بينما سار جيرانها الاوروبيون اشواطاً بعيدة في الحضارة والرقي العلمي .



اضمحلال الدولة الجزائرية

بدأ اضمحلال الدولة الجزائرية في صورة عداء وتحاسد بين القوى التي اوكل اليها حماية الجزائر والقيام على شئونها وبين الحكام الاتراك الانكشاربين وبين جنود البحرية من الاندلسيين والمغاربة بين الباشا المعين من قبل السلطان والديوان المكون من الاهالي فقد انشغل الباشا بشئونه الخاصة وانصرف عن امور الدولة واجتهد لكي يجمع المال بالرشوة والسرقات فاجترأ عليه جنوده الانكشاريون وابى هؤلاء الباشوات ترجع مسئولية الاسراف في التعدي على السفن في الثغور فقد كان الباشاوات يدفعون الاهلين الى ذلك التعدي دفعاً ويتعهدون قراصنة مختصين لهذا العمل .

ولم يكن يشعر بوجود الباشا الا في الاحتفالات او الاجتماعات التي كان يقوم بها كرئيس الديوان، وكان يسلط الباشا فرقاً اخرى من الجند على الانكشارية لاخضاع شوكتهم فتنشأ الحروب الداخلية ، ومنذ سنة ١٦٥٩ اصبحت السلطة الفعلية بيد الاغوات قادة الانكشارية ووقع الصراع بين الاغوات والريسية (اى قادة الجند من الاندلسيين والمغاربة) فانتصر الوطنيون وغلب الاغوات ! واستلم رئيس (الريسية) الامر واصبح اسمه « الداي »

اي « الخال » ومنذئذ اصبحت السلطة بيد الدايات .

وفي مثل هذه الظروف استشرى خطر القرصان ومضوا في اعمالهم دون ان يكون عليهم رقيب اذ تحولوا مع الزمن من طلاب جهاد الى طلاب ثروة وغنم بعملية القرصنة هذه ، ونتيجة القرصنة ازداد عدد الاسرى الاسبان والفرنسيين والايطاليين وراجت تجارة الرقيق .

وقد روى (هايدو) المؤرخ الاسباني ان السادة العرب كانوا يتركون هؤلاء الارقاء يرتلون عباداتهم في بيوت اسيادهم بخلاف ما كان يعامل الباريسيون به البروتستانت في ذلك الحين تماماً من الظلم والقسوة حيث كانوا يلقونهم تحت العجلات في الطـــريق ويتفرج عليهم النـــاس لخروجهم من الكاثوليكية واعتناقهم البروتستانتية .

وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر هوت قوة اسبانيا البحرية وارتفعت قوى بريطانيا وفرنسا البحرية والبرية ، فاستراح المغرب من منافسة اسبانيا وبدأ يستعد لاستقبال هذا الناشىء القوي الجديد (فرنسا) . واخذ الضغط الفرنسي يزداد على المغرب بنسبة ما كانت تفقد فرنسا من مستعمرات واسواق في آسيا وامريكا .

ومنذ سنة ١٦٢٨ م حصل سانسون نابليون الكورسيكي على امتياز صيد المرجان من الساحل الافريقي فكانت شركته اول شركة افرنسية دخلت البلاد واول اموال اجنبية استغلت فيهـا

وتداخل في امور البلاد الداخلية واحتكر تجارة القمح بعد ذلك ، وحصل قبله الايطاليون على امتيازات تجارية من خير الدين بربروس واصطرع التنافس التجاري بين الايطاليين والافرنسيين فأدى الى مؤامرة انتهت بمقتل سانسون سنة ١٧٣٣ .

وقلق حكام الجزائر من هذا الصراع بين الجنـــويين الايطاليين ، وبين ورثة شركة سانسون ، فصادروا منشآت الاوروبيين جميعاً سنة ١٦٣٧ ولكنهم سرعان ما منحوا امتيازات جديده لشركات افرنسية جديدة اخرى نالت اكثر من امتيازات سانسون وبقيت من سنة ١٦٩٤ الى سنة ١٧٥٤ .

ولكن الاوروبيين ارادوا اكثر من التجارة فلم ترق لهم هذه الاتفاقيات التي كانت تحدد نشاطهم ، وكذا سكان الجزائر لم يرتاحوا الى هذه الاموال الدخيلة التي عرقلت نشاطهم التجـاري الوطني ولهذا رغب الطرفان في الخلاص منها ، واخذ الرأي العام في اوروبا يهاجم سياسة الاتفاق التجاري مع المغرب العربي لا سيما وان الجزائر مثلاً ما كانت تعقد الاتفاقيات والمعاهدات مع دول اوروبا بالتساوي .

فحينما عقدت الجزائر صلحاً مع ريتر Ruyter الهولاندي كان معنى ذلك نقض الاتفاق مع فرنسا وتوجيه القرصنة نحو السفن الفرنسية وكان ذلك عام ١٦٦٣ .

وتحالف الجزائر مع لويس الرابع عشر سنة ١٦٧٠ م كان بمثابة اعلان حرب على انكلترا وهولاندا .

والاتفاق الذي تم بين الجزائر وانكلترا سنة ١٦٨١ كان اعلان حرب على السفن الفرنسيه . وبهذا كانت القرصنة تؤذي الجزائر اكثر من ايذائها الدول الاوروبية بسبب ما تقيمه نحو بلادها من العداء الشديد .

ونفذ صبر الاورورو بيين وافلت زمام الامر من يد حكام الجزائر فضربت انكلترا الجزائر بالمدافع ثلاث مرات عام ١٦٢٢ ، ١٦٥٥-١٦٧٢ بسبب القرصنة واعمال القراصنة الجزائريين .

وقد اضطر الانكليز اكثر من مرة لدفع الاتاوات الى داي الجزائر حتى يأمنوا على انفسهم ومتاجرهم من اذى القراصنة ، ولا ننسى ان انكلترا كانت في اوج عزتها البحرية آنذاك .

لقد كانت دولة انكلترا تؤدي /٦٠٠/ ليرة انكليزية في كل سنة وكانت دولة فرنسا تؤدي هدايا ثمينة بواسطة قناصلها، وكانت دولة الدانيمارك تؤدي ادوات ومهمات حربية بقيمة اربعة آلاف ريال ، وكانت دولة هولاندا تؤدي /٦٠٠/ ليرة فرنساوية ومملكة سيليزيا /٢٤/ الف ريال وصاكة سردينيا /٦٠٠٠/ ليرة فرنساوية والولايات المتحدة آلات ومهمات حربية بقيمة أربعة آلاف ريال وعشرة آلاف ريال نقدي وكذا اسوج ونروج وهنوفر وبراغ واسبانيا (١) .

---

(١) اخذت هذه الارقام عن كتاب (تحفة الجزائر في مآثر الامير عبدالقادر ج ١ ص ٨١ .

العلاقات بين فرنسا والجزائر منذ عصر النهضة

كانت فرنسا احفل دول اوروبا بأذى القرصنة فكان خليقاً بها ان تكون اكثر دول اوروبا اهتماماً بقضايا القرصنة .

ومن ثم اتصل العداء بين الفرنسيين والجزائريين طوال القرن السابع عشر وتكررت حوادث الاعتداء من الفريقين ، وتوالت حوادث ذبح الجزائريين في مرسيليا وذبح الفرنسيين في الجزائر وأهين قناصل فرنسا كثيراً ونهبت اموال الجالية الفرنسية وضربت المدافع الفرنسية الجزائر عدة مرات بغير جدوى . وقد حاول الفرنسيون غزو الجزائر سنة ١٦٦٤ فلم يوفقوا في ذلك وعادوا بعد خسائر فادحة ومقتلة عظيمة كما يقول المؤرخون ثم أرسلوا البعثات التبشيرية بالدين المسيحي وغرضهم إثارة اوروبا المسيحية على المغرب العربي اذا ما اصاب هذه البعثات التبشيرية اذى من مسلمي المغرب او الحقت بكنائسهم الاضرار وقد وفقت هذه البعثات بعض التوفيق في مهمتها لكثرة ما اغدق عليها كليبر وزير فرنسا في عهد لويس الرابع عشر من نعم وعناية لا سيما عندما اسندت الي قسوسهم وظائف القناصل فأصبح ممثل فرنسا ممثل المسيحية في ارض المسلمين .

ولكن الجزائر في هذه ما كانت تهتم كثيراً لهذا حيث كانت في حاله حسنة من الرخاء ، وقد اتسعت رقعتها حتى شملت تونس نفسها سنة ١٦٨١ وكانت تنقطع الصلات بينها وبين الدولة العثمانية وهذا ما ساعد على رفاهها المادي والمعنوي حتى اصبح داي الجزائر شبه مستقل في امور دواته او ايالته .

ولو اعد امراء الجزائر بلدهم اعداداً عسكرياً صحيحاً دون الاعتماد على الدولة العلية لدفعوا عنهم جشع الاستعمار الفرنسي خاصة والارروبي عامة ، وكان عليهم ان يقلدوا جيرانهم الاوروبيين في نهضتهم التي بدأت تتألق في ذلك الوقت يساعدهم على الدفاع عن اراضيهم استعدادهم الحربي الذاتي وقدرتهم على ركوب البحر وتخطي الاخطار .

ومما يؤسف له انه منذ اوائل القرن الثامن عشر بدأت بوادر الانهيار تلمع في آفاق المغرب العربي .

اخذ ايراد الدولة من القراصنة يقل بتقدم الملاحه الاوروبية وحسن تجهيزات واحتياطات السفن فلم يزد دخل الدولة من هـذا الباب على مأة الف فرنك ذهباً وبالتالي بدأت حكومة الجزائر تهمل الاسطول لما قلت وارداته مع انه كان يحتاج الى عناية مضاعفــة ليواجه لاخطار التي تهدد الجزائر والتي تحدثنا عنها .

وفي اواخر القرن الثامن عشر اجتاحت الاوبئة الجزائر رغم وفرة الاطباء الافرنسيين العارفين بالادوية لهذه الامراض ولكن الدايات ما كانوا شاعرين بواجبهم تجاه الصحة العــامة ففتكت

الاوبئة بالناس وقل المتطوعون الى جيوش الجزائر لان الاندلسيين المسلمين المحاصرين في اسبانيا والذين كانوا يتطوعون جنوداً للقتال بعد تخليصهم قد نضبوا ، ولم يفكر الدايات في اسلوب يعوض هذا العدد حتى هبط الجيش الجزائري الي ستة آلاف جندي فقط . وانتشرت المتاجر الفرنسية وتزايدت ارباحها وضمَّت فرنسا شركاتها هذه حتى تمكن الفرنسيون من احتكار القمح في الجزائر وتصديره وبدأوا يتصرفون بالاسعار والاسواق كما يشاؤون فيستغلون اموال واقوات الشعب الجزائري .

وانقضى عهد الدايات الاقوياء واخـــذ يتولى الامر رجال ضعاف وادرك الدولة كلها فتور فلم يعد للديوان حول وقوة ومال الوزراء الى الراحة وترك الامر الداي فثقل عليه فسلمه للجند ففسد، كل هذا في اواخر القرن الثامن عشر عصر النهوض والقوة بالنسبة للدولة الاوروبية عصر الاخطار والاهوال بالنسبة للدول الاستعمارية فليس على قبائل الجزائر من حرج في مثل هذه الحال اذا هي ثارت على حكومتها وخلعت سلطانها .

وليس على الاسبان من حرج اذا هم حاولوا فتح الجزائر من جديد فهاجموا الساحل وخربوا وهران .

وليس على فرنسا من حرج ادا هي استوردت قمح الجزائر ولم تدفع قيمته .

ومن الغريب ان الداي بعد كل هـــذا يركب رأسه حمقاً

عندما عقد مؤتمر (اكس لاشابيل) لاتخاذ التدابير الفعالة للقضاء على القرصنة وعندما انتدب اميرالان افرنسي وانكليزي لمفاوضته في كف يد رعيته عن الاذى فيستقبل المفاوضين صلفاً ويحدثهم حديث الآمر الناهي مهدداً ومتوعداً فيرسل الانكليز والهولانديون حملة لتأديب العصاة الجزائريين سنة ١٨١٦ فتصاب الجزائر في كثير من الاذى نتيجة صلف الداي وكبريائه ! وبينما كان محمد علي باشا في مصر يحسن سياسته مع دول اوروبا ويكسب عطفها بواسطة قناصلها رغم حداثته في الحكم نرى الداي حسين يستبد غشوماً ويسخر من قناصل الدول واعجب من ذلك جوابه الى رسول محمد علي باشا الذي جاء يعرض وساطته لحل النزاع بين الداي وفرنسا وينصح الداي بتحسين سلوكه مع فرنسا ويحذر العاقبة ، لقد كان جواب الداي للرسول :

(بلغه سلامي وقل له يأكل الفول محمد علي رجل مسكين لا يفهم الامور ولا يقدرها حق قدرها .)

لقد كانت سياسة الداي حسين باشا سبباً في انعدام الرجاء في الصلح بين فرنسا والجزائر او بين الدول الاوروبية عامة والجزائر وربما احتملت كل الدول الاوروبية عجرفة وصلف الداي الا فرنسا « الثائرة » آنئذ فقد عزّ عليها ذلك .

وربما كانت فرنسا ترغب باحتلال الجزائر قبل الوقت الذي وقع فيه الاحتلال كما يلاحظ من مساومة محمد علي باشا والي مصر على فتح الجزائر باسم فرنسا على ان تمده بالعتاد الحربي والمال ولكن

محمد على اشتط في الطلب فأراد مبلغاً كبيراً من المال واربع سفن كبرى من ذوات الثمانين مدفعاً .

ولكن الحقيقة فان محمد علي كان يخشى غضب انكلترا من هذه الحملة رغم رغبة صديقه بوليناك الوزير الفرنسي بذلك .

. . .

وفي ١٢ تموز سنة ١٨٢٤ هاجم الاسطول الانكليزي وحده الساحل الجزائري واستمرت الحرب /١٧/ يوماً انسحب بعدها المعتدون دون أن ينالوا من حصون الجزائر او يلحقوا بها ضرراً .



ملاحظات حول الجزائر وهي تحت الحكم الغثماني

لقد كان اتصال الجزائر بالدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر اتصالا روحياً اكثر من اي شيء آخر لان الخلافة كانت في ذلك العهد تتطلب وحدة المسلمين في كل الاقطار ولان الخليفة العثماني آنئذ يمثل قوه التوجيه التي حمل امانتها خلفاء محمد منذ ابي بكر وفي هذا الصدد كتب البارون (دي سان دينيز) عن الجزائر يقول .

« .. ان حق السيادة قد افلت من يد سلاطين آل عثمان ليئول بجملته الى ايدي الدايات وهذه الثورة شبيهة بتلك التي تخلص بها الامراء الالمان من ولاتهم وخضوعهم لسلطان اباطرة الدولة الجرمانية . » ويقول البارون ان الدايات كانوا يمارسون سلطانهم كسادة للجزائر ولا يقبلون اي ارتباط سياسي بين بلادهم والباب العالي فقد كانوا يعلنون الحروب ويعقدون الصلح دون الرجوع الى القسطنطينية .

ومن مظاهر السيادة الجزائرية واستقلال دولتها علاقاتها الدبلوماسية بكثير من دول اوروبا وامريكا في ذلك الوقت .

فقد وصلت اول بعثة دبلوماسية فرنسية الى العاصمة الجزائرية خلال عام ١٥٦٣ وبمقتضى اول معاهدة عقدت بين البلدين

استنجد فرانسو الاول ملك فرانسا مرتين بالدولة الجزائرية خلال عامي ١٥٣٦-١٥٤٣ طالباً من الاسطول الجزائري المعاونه ضد الاسطول الاسباني عن ساحل فرنسا الغربي ، وبمقتضى هـــذه المعاهدة طلب هنري الرابع ملك فرنسا النجدة من الدول الجزائرية عام ١٥٩٣ لتعينه بقواتها البحرية على تحرير مدينة مرسيليا وشاطىء فرنسا الجنوبي من الهوغنوت والاسبان .

وبلغت ديون فرنسا للخزينة الجزائرية في اواخر القرن الثامن عشر رقماً خيالياً بالنسبة للقيمة النقدية في ذلك العصر اذ تجاوزت /٢٤/ مليون من الفرنكات الذهبية اي نحو عشرة ملايين ليرة سورية استدانتها فرنسا عيناً وبضائع وموارد اولية .

وعقدت الجزائر معاهدات مع انكلترا وهولندا والدانمارك والبندقية وكانت الجزائر في طليعه الدول التي اعترفت بالولايات المتحدة الامريكية سنة ١٧٧٦ وعقدت معها معاهدة صداقة عام ١٧٩٥ بناء على توصية مجلس الشيوخ الامريكي ولكن الولايات المتحدة لا تفي بهذا الدين الذي في عنقها وتعترف للجزائر بحقها في الحرية والاستقلال الان وتنفذ ما بينها من معاهده صداقة ! لقد كانت الجزائر قبل العدوان الفرنسي دولة مستقلة ذات سيادة مطلقة النفوذ في حكم نفسها حرة في ادارة سياستها الداخلية والخارجية وتكييف قوتها العسكرية ونطاقها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي .

• • •

فرنسا قبيل فتح الجزائر

نادت فرنسا بالحرية والمساواة والاخاء عندما اعلنت ثورتها على الظلم والملكية المستبده ، وأقامت الجمهورية على هذه الدعائم الثلاث وافرجت عن الوف الابرياء الذين قضوا سنيهم الطويلة في السجون وقضت على الطبقات وقررت ان بني الانسان من طينة واحدة وان الانسان اخو الانسان لا فضل لواحد على الاخر الا بما يؤدية من خدمات نحو وطنه .

وصدرت هذه المبادىء الى البلاد المجـــاورة بالخطابات والرسائل والكتب والقصائد الشعرية .

ولكنها سرعان ما داست هذه المبادىء مع الشعوب الحـــرة المستقلة عندما قام ابن الثورة نابوليون يحقق الامبراطورية الفرنسية الكبرى ، ومهما كانت الأعذار بعدئذ في اخضاع المغرب العربي بحكم مبادى الثورة الرفيعة التي نادى بها الشعب التونسي فان هذه الاعذار واهيه وتلك المبادى رمزية بعد ان حاولت فرنسا احتلال اوروبا واخضاعها لقوتها . وبعد وقوفها الى جانب الدول المستعمرة الكبرى منذ مطلع القرن التاسع عشر .

وقد استهل الاستعمار الفرنسي اعماله الاستعمارية الجديدة

بعد ثورته التحريرية الكبرى وبعد اضاعته كندا والهند استهل هذه المعركة الاستعمارية بفتح الجزائر .

وفي الواقع ما كانت مبادىء الثورة الفرنسية بضاعة للتصدير وانما هي للاستهلاك المحلي لانها بضاعة غالية الكلفة ولان تصديرها يفقد الشعب الفرنسي مكانته في اوروبا ومجده العسكري ومركزه الرفيع بين الدول العظمى المستعمرة . وحـــتى في فرنسا اصبحت بضاعة حرية ومساواة واخاء مفقودة من السوق السياسي، بعد فترة قصيّرة من عهد الثورة ان لم نقل ايام الثورة الفرنسية ذاتها .

ولقد زاد احساس شارل العاشر اخي لويس الثامن عشر الذي عاد في عربات الجيوش المحتلة الى بلاده بعد معركة واترلو خاتمة معارك الحروب النابوليونية ، زاد احساس شارل العاشر واحساس وزيره بولينياك بانصراف الفرنسيين عنها وسأمهم حكمها وتحدثهم بالثورة على الملكيه الضعيفة التي تحميها .

ورأى الوزير ضرورة عمل شيء يرفع من قدر حكومته في نظر الشعب الفرنسي ويشغله عن نقد اعمال الحكومة من جهة اخرى ففكر في فتح خارجي لان الشعب الفرنسي لا يزال مفتوناً بالحروب والغزوات تملكه اخبارها ويأسر قلبه مجدها وفخارها ، وتخير الرئيس والملك الجزائر مسرحاً لتمثيليتهم هذه .

ففي فتح الجزائر انتقام لما اصاب الفرنسيين من اذى على يد الجزائريين وشفاء لغريزة دينية مكبوته في قلوب الغالين وارواء

لتحرق وزير الحربية بارمون الذي يلح بطلب ترأس حمله الى هذه المنطقه لتحقيق احلامه بفتحها فبات الوزير والملك يتحينان الفرصة لذلك .

ولكن شارل العاشر لم يوفق ادبياً في هذه الحملة فكان سيء الاختيار المناسبة التي بدأ فيها الفتح وكان سيء الاختيار للقادة الذين ندبهم لهذا العمل وكان سيء التقدير حين حسب ان ذلك يقيل ملكيته من عثرتها .

ولم يخطىء المؤرخ الاسباني (جوليان) عندما قال : «... ان الفتح الفرنسي لمغرب العربي كان عمـــلا مضضرباً دبره تجار جزائريون يهود بالاشتراك مع سياسيين مفسدين في باريس ، وكان ـ اي الفتح ـ حادثاً اثاره سياسي متهم في ضميره ، وكانت حملة قادها قائد سيء السمعة قيادة خاطئة وكان نصراً تلقاه الرأي العام بعدم الاكتراث لما كلف الامة من ضحايا واموال ، واعقبه سقوط الاسرة المالكة التي طلبت فخره لبقائها .

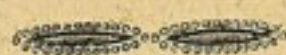
تلك كانت المقدمات التي مهدت للفتح الفرنسى في الجزائر .



الحالة الاقتصادية في الجزائر قبل الاحتلال

كانت الحالة الاقتصادية قبيل الاحتلال في الجزائر مزدهرة وكانت الجزائر تحتل مكاناً في الحوض الابيض المتوسط خاصة وفي المحيط الدولي عامة لخصوبة الارض وتنوع المحاصيل ووفرة الانتاج الى جانب جهاز صناعي عظيم وتجـــارة بحرية لا بأس بها وكانت الحبوب من اهم انواع الغلال وكانت تربية الاغنام منتشرة انتشاراً كبيراً لوفرة المراعي وكانت الصناعة الريفية راقية من منسوجات صوفية وحريرية ومصنوعات جلدية ونحاسية واسلحة . وكانت سفنهم تمخر البحار الى اكثر موانىء المتوسط وغيره وقد استفاد اليهود من عمليات التصدير والاستيراد .

هذا النشاط التجاري والصناعي والزراعي انشغال اوروبا بالحروب والثورات وطلبها المزيد من الانتاج من البلاد المجاورة وارتفاع الاسعار حسب قاعدة العرض والطلب .



الاسباب المباشرة والبعيدة لفتح الجزائر

ان الاسباب المباشرة للفتح هي القضية المعروفة بديون اليهودين « يعقوب كوهين باكرى » و « ميخائيل الي زناك » او « ميشال اليوشناق » .

ولا توصف هذه القضية الا بانها مؤامرة سيئة دبرها هذان اليهوديان بالاشتراك مع نفر من كبار الساسة الفرنسيين لسرقة داي الجزائر وحكومة فرنسا على السواء .

ومن دراسة تفاصيل هـذه القضية نرى ان السياسيين الفرنسيين كانوا يريدون اختلاس بضعة ملايين من حاكم شرقي فاذا طالب بها اعتبر مسيئاً خارجاً عن حدود اللياقة مع دولة عظمى مثل فرنسا . ويؤكد لنا هذه المؤامرة ما بلغ بالوزراء الفرنسيين من استخفافهم بداي الجزائر واحراجهم اياه بتعينهم للقنصلية الفرنسية هناك رجلا متهماً في خلقه وفي امانته ، وعبثاً حاول الـداي الاحتجاج على هذا التعيين وعبثاً حذر فرنسا من نتائج بقائه حتى انتهى الامر مع هذا الممثل الى ايقاع الحرب بين الدولتين .

ونستعرض الان كيف تمت صفقـة اليهودين بـين الداي

وحكومة الثورة الفرنسية :

في السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر سنة ١٧٩٢ احتاجت الحكومة انفرنسية الى القمح لتموين حملتي ايطاليا ومصر فتعهد بتقديم الحبوب هذان التاجران اليهوديان اللذان مر ذكرهما وكان الداي قد فوضهما بتجارته الخارجيه فمضيا يوردان القمح الى فرنسا سنوات عديدة ولا يعطيان الداي شيئاً من القيمة ، وكان لهما شبه اتفاق مع تاليران وزير خارجية فرنسا اذ ذاك على اقتسام ما يأخذونه من الحكومة الفرنسية ثمنا لهذا القمح مناصفة دون ان يكون للداي صاحب الحق الاول نصيب .

وكان اليهوديان يضيفان للداي على المبالغ ارباحاً وهمية ويتراخيان في مطالبة الحكومة الفرنسية حتى تزداد القضية تعقيداً، وتعهد تاليران بالدفاع عنهما فكان يوصي وزير المالية الفرنسية بان لا يعتبر هذه المسألة مسألة شخصية مع الداي وسماسرته وانما يعتبرها مسألة حكومية ، وتناول بهذا تاليران اربعة ملايين من الفرنكات ليدفعها لصاحب الحق وبعد مدة طويلة طالب التاجران اليهوديان الحكومة الفرنسيه بمبلغ اربعة وعشرون مليوناً وهي المبالغ المستحقة في ذمة الخزينة الفرنسية مع الفوائد وحققت فرنسا في المبالـــغ فقدرتها بسبعة ملايين فقط وعنـــدئذ اقامت الحكومة الفرنسية « دفال » السيء السمعة قنصلا لدى حكومة الداي ، فأيقن حسين باشا وهو لهذا الرجل ان ماله قد ضاع بين تسويف الحكومة الفرنسية وممالأة تاليران وتأثير اليهوديين وخطوة مندوبه في باريس السيد نيقولا بليفيل Nicolas Pleville وتحدي ديفال .

وتأكدت مخاوفه حين اعترفت فرنسا بحقوق اليهوديين ولم تعترف له بحقوقه ، ولاحظت غرفة تجارة مرسيليا بأن ديفال يتواطأ مع كوهين للعبث بمصالح فرنسا والجزائر فرفضت التعامل مع ديفال وازدادت شكوى الداي من ديفال ايضاً وكتب الى حكومة فرنسا سنة ١٨٢٦ بأنه لم يعد يحتمل بقاء هذا الدساس ورجا فرنسا ان تستبدل به رجلاً شهما وكشف الداي مؤامرة تواطأ بها ديفال مع بليفيل مع كوهين على ان يأخذ كل من ديفال وبليفيل من كوهين مليوني فرنك اذا ساعداه على استحصال الملايين السبعة المتجمدة له باسمه من الحكومة الفرنسية . وزاد غضب الداي من مساعدة حكومة فرنسا لتجار مرسيليا واقتطاع ما للمرسيليين من ديون على التجار الجزائريين من هذا المبلغ ايضاً فطالب ان يدفع له المبلغ دون حسم وان يحاكم التجار الفرنسيون مع التجار الجزائريين امام محكمة جزائرية لافرنسية .

• • •

وكان يوم ٢٧ نيسان عام ١٨٢٩ يوافق ليلة عيد الفطر فذهب ديفال قنصل فرنسا في الجزائر الى قصر الداي ليقدم فروض التهاني فسأله الداي عن اسباب تأخر جواب شارل العاشر ملك فرنسا على كتابه حول الديون المستحقة ؟ فقال القنصل في صلف وكبرياء ان مليكه لا يتنازل الى حد الرد على داي الجزائر فثارت ثائرة الداي وكانت في يده مروحة فلطم بها وجه القنصل وصرخ به ان اخرج من القاعة .

وفي الحقيقة فان الامر ليس بهذه الخطورة التي تستحق من اجله الجزائر محو استقلالها بعد ان تأكد للرأي العام ان ديفال استفز رأي الداي بوقاحة غير لائقة ، وقد لبث الداي اياماً يؤكد بان المسألة شخصية لا دخل للحكومة الفرنسية بها .

ولكن فرنسا اعتبرت حادثة ٢٧ نيسان كافياً لتبرير غزو الجزائر واحتلالها .

وبدأت حكومة مارتنياك العمل : فقررت محاصرة الجزائر وعلى اثر هذا الاعتداء واهانة شرف فرنسا الممثل باهانة قنصلها وحاصرتها حصاراً طويلاً كلفها مالا كثيراً ولم يعد بفائدة فرفعت فرنسا الحصار وعادت تطلب ترضية فقط عن الحادث فأبى الداي ذلك معتقداً ان رفع الحصار ناتج عن عجز فرنسا عن فتح الجزائر وزاد على ذلك ان ضرب السفينة بروفانس التي كانت تحمل الرسول المفاوض بعروض الترضية دون الحرب، عندئذ استقر رأي بولينياك « رئيس الوزارة الجديدة » على فتح الجزائر ، ولما قدمـــــه وزير حربيته بورمون Bourmont من محسنات حيث رجا ان تكون قيادة الحملة له .

وما كانت فرنسا تخشى كثيراً - في هذه الفترة - اعتراض الدول الاوروبية على هذا الفتح حتى ان انكلترا - الخصم التقليدي - بدا عليها انها تفضل وجود فرنسا على الشاطىء الافريقي من الداى الجزائري الذي اقلقتها قراصنته .

وظهرت المقاومة الفعلية من الشعب الفرنسي الذي ما اراد

الحروب بعد ان بلا انواعها وذاق مرارة النصر والفشل وعلم ان الحرب خسارة في الحالين . وزاده شكاً بنتائجها اعـــتماد وزارة بولينياك على القائد بورمون لهذه الحملة القائد الذي يحمله الشعب الفرنسي مسئولية هزيمة واترلو ويتهانه بخيانة نابوليون .

. . .

وقبل ان نخوض في تفاصيل هذا الغزو الهمجي نلقي نظرة سريعة على اقوال المؤرخين فيه لنخرج بدراسة الاسباب البعيدة لهذا الفتح الاستعماري الغاشم .

يقول« السير روى دفر كسيس » في كتابه (مظاهرةالجزائر) « ... وانه من وجهة النظر الاخلاقية لا يستطيع المرء بحـال من الاحوال ان يبرر اعتداء امة متمدنة على وطن غـــيرها . » وقال مترنيخ السياسي النمسوى الكبير ساخراً .

« ... أمن اجل ضربة مروحة تنفق فرنسا مأة مليونفرنكا ذهباً وتخاطر بأرواح أربعين الفاً من زهرة شبابها . »

والحقيقة ان هناك دوافع اخرى حملت فرنسا على احتلال الجزائر هي :

١- المطامع الاقتصادية :

فمن المعروف ان جميع المشروعات الاقتصادية تقوم على اسس تجارية ترمي الى استنزاف خيرات البلاد المحتلة وتملك موارد الرزق

فيها واحتكار اسواقها وتسخير ابنائها لمصلحة الغزاة المستعمرين وادق تصوير لهذه الفكرة الشكوى التي يرفعها حكام البلاد الوطنيين من تدخل الشركات الاجنبية دائماً في الامور الداخلية لبلادهم. وفرنسا خلال التسابق الاستعماري كانت اكثر الدول الاوروبية راغبة في الاستعمار وبحثاً عن الاسواق لتصريف منتجاتها. والتوسع وبسط النفوذ وامتلاك المواد الاولية، ولفقدانها كندا والهند وضياع مصر من يدها آنذاك.

وجاء في كتاب « بداية امبراطورية » للكاتب اسكير (ان وكيل العلاقات التجارية الفرنسية في المانيا كتب الى حكومته يوصي باحتلال الجزائر قائلا: (ان الفوائد المادية التي تعود على فرنسا من غزو الجزائر بغض النظر عن ملايين الفرنكات الذهبية التي تزخر بها الخزانة الجزائرية اجدى وانفع لفرنسا من كل عمليات الغزو الاقتصادي التي قامت بها حتى الان. فهناك سهول طيبة ذات خصب عجيب ومناجم غنية بالحديد والرصاص وجبال من الاملاح المعدنية كلها تنتظر الايدي التي تستغلها.) وطبقة النبلاء التي اذهبت الثورة اراضيها كانت بحاجة الى اماكن جديدة لتوظيف اموالها فكانوا من العناصر التي دفعت الحكومة الفرنسية للغزو ليفتحوا اسواقاً لاموالهم.

اما المواد الخامية فيكفي ان نذكر ان ثمن فروق اسعار القطن التي ذكرها كتاب « المسألة الجزائرية » بين لندن وباريس كان كافياً للبحث عن مواد اولية حيث بيع القطن في لندن /٢٣٠/

فرنكا وبيع في باريس ١٦٤٠ فرنكا آنذاك .

ب- الدوافع السياسية :

طلع فجر القرن التاسع عشر وفرنسا مطرودة - كما ذكرنا - من كندا في امريكا ومن الهند في آسيا ومن مصر في افريقيا بعد ان توالت عليها الهزائم في اوروبا في اواخر عهد نابوليون فأخذت احلامها تنهار وبدأت تفكر من جديد باستعادة مكانتها الى جانب انكلترا وهولاندا .

وراودها الحلم بالاعتداء على الجزائر لا سيما بعد ان خلا العرين من آساده بارتحال البحارة المجاهدين من اهلها مع الاسطول التركي المصري الى حرب الموره سنة ١٨٢٧ عندما اتفقت اساطيل الانكليز والفرنسيين والروس القضاء على اساطيل المسلمين في موقعة نافارين وهي اساطيل مصر والجزائر وتركيا وخسرت بعد هذه المعركة الجزائر كثيراً من السفن والابطال فسهل القضاء عليها بعد ان تحطم اسطولها حتى كانت قضية القنصل التي تذرعت بها فرصة وحجة لفتح الجزائر المجردة من الاسطول الحربي لقرب الموقعتين وقد كشف هذه المؤامرة المؤرخ الفرنسي الكبير (هنري غارو) في كتابه (تاريخ الجزائر) الذي قرظه المجمع العلمي بقوله « ان حكومة باريس كانت قد وطّدت العزم على وضع حد لتسلط الاسطول الجزائري على غرب المتوسط فأنتهزت فرصة غياب اكبر السفن الحربية الجزائرية في المياه اليونانية لتجد دعوى تبرر بها

اعلان الحرب على الجزائـــر فأرسلت تعليماتها الى قنصلها لدى حكومة الداى ليغتنم الفرصة ويثير اسباب النزاع .. » فكانت حادثة المروحة . »

وكذا حاولت فرنسا ان تشغل الرأي العام الفرنسي عن المطالبة بالحريات المغلولة والمطالبة باطلاق حرية الصحافة واطلاق سراح الاحرار والجمهوريين في السجون فأجدت الحرب سبباً لكل هذا ومبرراً .

وقد زين الساسة الاوروبيون لفرنسا في مؤتمر فينا وبعدما فقدته من مجد ، على اثر الهزائم التي اصابتها في حروبها الامريكية والاسيوية القيام بحملة على الجزائر ليحولوا بذلك دون نزوع الفرنسيين الى التوسع في اوروبا وقد اتخذ هذا القرار بالاجماع ما عدا بريطانيا !

وكان قواد فرنسا يريدون ذلك لكي لا يقال ان الفتوحات كانت لوجود قائدهم الاعلى نابوليون ، وانما كما يقولون هم كانوا يصنعون هذا المجد لفرنسا وسيصنعونه من جديد فلتكن الجزائر مسرحاً جديداً لعمليات نصرهم ومجدهم .

جـ ـ الدوافع الدينية :

وما سها المؤرخون عن ان فرنسا بنت الكنيسة الكاثوليكية المفضلة كانت تريد احتلال الجزائر ليئول اليها ما كان لروما القديمة من سلطان ومجد في افريقيا على الاقل ولهذا تعهدت بنشر المسيحية

في افريقيا وقد اثبت ذلك التقرير الذي رفعه وزير حربية فرنسا الى شارل العاشر على اثر حادث المروحة حيث قال فيه مبرراً ضرورة احتلال الجزائر .

« ... أخذاً بثأر الاهانة التي لحقت بممثل فرنسا وارضاء للمسيحيين وذلك بابادة المسلمين أشد اعدائهم طغياناً ! . . » ثم يتابع قوله : »

« مولاي ! انها المشيئة الالهية التي قضت بأن تنادي سليل القديس لويس التاسع ليأخذ بالثأر وليقتص للدين والانسانية وليغسل عار الاهانة التي لحقت به هو بالذات ، وستعود الحملة بالخير العميم لا على فرنسا فحسب بل على اوروبا بأسرها ، ولسنا بحاجة الى اقتناع جديد بأنه لا استقرار للامن في الجزائر الا بابادة اهلها عن بكرة أبيهم . »

وكان شارل العاشر قد اقتنع بهذا الفتح الصليبي فخاطب مجلس الشيوخ الفرنسي في خطاب العرش غداة كانون الثاني سنة ١٨٣٠ معللا اسباب الهجوم قائلا :

« ... وسترون ايها السادة ان التعويض الضخم الذي ستحصل عليه حكومتي رداً لشرف فرنسا سيئول لاخواننا المسيحيين » وقال دي بورمون في بيان القاه على جنوده :

«... لقد جئتم لتعيدوا معنا فتح الباب على مصراعيه لتدخل المسيحية افريقيا واننا لنأمل ان تعم هذه الربوع قريباً لتعمل من جـــديد على ازدهـار المدينة التي انطفأ مصباحها منذ عدة قرون !...»



احتلال الجزائر

غادرت الحملة الفرنسية ثغر طولون في ٢٥ مايس سنة ١٨٣٠ ونزلت بعد ثلاثة اسابيع في شبه جزيرة (سيدي فريج) على مسيرة /٢٤/ كيلومتراً من العاصمة وفق خطة وضع تفاصيلها ضابط في سلاح الهندسة العسكرية سبق ان جاء الى الجـزائر للتجسس ودراسة اغوار البحر عند هذه النقطة التي كانت قليلة الحصانة لبعد الشقة بينها وبين العاصمة التي كانت قبلة الغزاة في كل محاولة سابقة ، وكانت حصانة العاصمة هي السبب الذي حمـل الفرنسيين على ان يبحثوا عن مكان آخر قليل التحصين لتنزل فيه قواتهم البريه .

وفي جزيرة سيدي فريج التحمت القوات المعتدية بالقوات المدافعة وقد ظلت الحرب بعد ذلك مشتعله بين الفرنسيين واهل الجزائر زهاء ثلاثه ارباع القرن او اكثر من ذلك دون ان يتحرك قطر عربي او تخف دولة اسلامية لمساعدة الجزائر الشهيدة وسرعان ما عمت شرور الاستعمار العالم العربي والاسلامي بعد هذا التقاعس المخجل . ولا تزال الدول العربية رغم الدروس الكثيرة تبرز هذه الظاهرة المؤلمة ـ عدم الانتفاض للاهانة اللاحقة بالقطر الآخر حتى

يفترس الاستعمار الدولة العربية دولة دولة .

وفي الواقع فان حكومة داي الجزائر ما كانت تتوقع ان تأتيها الضربة من هذا المأمن وان تنازلها القوات المعتدية في البر ولهذا كان اهتمامها - في الفترة الاخيرة - منصباً على تقوية اسطولها والعناية بقوتها البحرية ولم يكن لها من الجيوش البريه سوى فرقة واحدة عددها /١٥/ الف مقاتل . ولهذا لم يلق الفرنسيون مقاومة تذكر عندما نزلو الى البر . وكان هدفهم الاول بعد ذلك احتلال العاصمة التي لم تلبث ان سقطت تحت وطأة اسلحتهم الحديثة في ٥ تموز سنة ١٨٣٠ اي بعد ٢٢ يوماً من نزولهم الى البر الجزائري قطعوا في اثنائها ٢٤ كيلومتراً .

وتوالت انذارات القائد الفرنسي في اثناء حصار العاصمة وادرك الداي عدم جدوى المقاومة فرأى حقناً للدماء توقيع الاتفاقية التي عرضها القائد الفرنسي دولورمون وتقضي بتسليم جميع الحصون الجزائريه ومرسى العاصمة وان يكفل القائد الفرنسي لداي الجزائر الحرية ويترك له ثروته الخاصة .

كما يترك له حرية السفر مع افراد اسرته الى اي مكان يختاره في حماية القائد العام وتقوم على حراسته كتيبة فرنسية مده اقامته في الوطن الجزائري .

وقد نصت الاتفاقية كذلك على ان حرية القيام بالشعائر الدينية الاسلامية مكفوله للجميع فلا اعتداء على المساجد ولا انتهاك

لحرمات المنازل ولا تعرض لمعايش السكان ، وهكذا تم لفرنسا ما ارادت فدخلت جيوشها عاصمة الجزائر وتوارت اعلام الدولة الجزائرية من الابراج والحصون ودور الحكومة وبدأت ترفرف الاعلام المثلثة الالوان اعلام الحرية والمساواة والاخاء !...

وقد استولى الفرنسيون حسب تقـــديرات المؤرخين الفرنسيين من خزانة دولة الجزائر - كما كان يتوقع ممثل فرنسا التجاري في المانيا - على /١٥٠/ مليون فرنكاً ذهباً اي اكثر من /٦٠/ مليون ليرة سورية ولكن لم يصل الى العاصمة الفرنسية من هذه المبالغ سوى /٤٨/ مليون فقط حيث نهبتها الحاشية التي كانت تعمل مع تاليران وبورمون لتحقيق هذا الاحتلال عدا عن الفي مدفع وكميات كبيرة من المؤن والصوف وبذلك يمكن ان يقال ان الارباح غطت النفقات في هذه الحملة وربحت اكثر من /١٢/ مليون عدا عن الظفر العسكري والسياسي .

لقد كانت قوى دوبورمون لا تزيد عن /٣٧/ الف مقاتل وتمكن بورمون مع ذلك من افتتاح وهران وبونه ولكنه عجز عن الاستيلاء على البليدة وبعد ذلك بقليل تسامع قواد الحملة بثورة تموز سنة ١٨٣٠ التي اسقطت حكومة شارل العاشر فوقفت العمليات الحربية وفكر فريق من الضباط بالزحف على فرنسا كما فعـــل نابوليون قبلاً - لانقاذها ولكنهم عدلوا .

ولم تلبث الحكومة الجديدة ان عـــزلت بورمون وولت

مكانه للقيادة كلوزل (Clauzol) في ٢ ايلول سنة ١٨٣٠ ، وقد لقي بورمون اهانة كبرى حين عزل ابى قائد الاسطول دوبيريه Duperé ان يسمح له بالسفر على احدى سفنه فأضطر المسكين الى استئجار سفينة نمساوية نقلته الى اسبانيا ومنها الى فرنسا .

ولم يوفق كلوزل في عمله فأستبدل في شباط ١٨٣١ بضابط آخر وكان مسناً صرفه همه الى تهيأة بعوث وسرايا صغيرة ، فشبت الثورات الجزائرية في كل مكان وخرجت كثير من المدن التى طاعت للفرنسيين عليهم فطلب القائد النقل فأجيب الى طلبه وخلفه قائد آخر اسمه سافاري فأشتد على الاهلين شدة بلغت به الى ابادة قبائل بأسرها وفي عهد خلفه تم فتح الساحل حتى مستغانم .

وفي ٢٧ تموز ١٨٣٤ ارسلت حكومة الجزائر اول حاكم عام الجزائر وكانت حركة الامير عبدالقادر في طريقها الى الظهور .



اسباب سقوط الجزائر

١ ـ وأضح جداً هو ان اقوى اسباب سقوط الجزائر عدم وجود حكومة بالمعنى الذي يفهم من هذا اللفظ ، لقد كان بها حاكم يستعين في تصريف الامور بطائفة من الاعوان والوزراء ويشرف على نفر من الجند في البر والبحر وهذا ما قلل احترام الدول لداي الجزائر وجعل الدول ترضي عن عمل فرنسا لعـــدم تمكن الداي من ردع المعتدين ـ رغم المعاهدات ـ من الاعتداء على السفن الاوروبية حتى حسبت بعض الدول بأن الداي رئيس عصابة تدفع له الدول الاتاوات لتأمن شره .

٢ـ كان لمنح المغرب الامتيازات الى الاوروبيين في صيد المرجان (بينما كان في امكان الجزائر صيده والكسب منه) الاثر الكبير للتدخل الاوروبي .

٣ـ ان اسلوب الحكم العثماني الاداري انتهى بالجزائر الى ما انتهى به في العالم العربي الى الفساد والفوضى فأبعد اهل البلاد الاصليين عن نواحي الحكم والادارة والدفاع واقتصر على طائفة خاصة من الناس وهذا ما سهل على الفاتح شراء ضمائر الناس بالرشوة

او التهديد .

٤ـ كان المغرب اقرب الى اوروبا في فجر نهضتها الجبارة وكان يتطلب من المغرب ان يجاري اوروبا في هذه النهضة لا ان يحافظ على جموده ، لا سيما وان قسماً كبيراً من اوروبا كانت تدفع الاتاوات اسلحة ومواد خامية وبقاؤه على القديم والافكار البالية سهل على الفرنسيين غزوهم .

٥ـ يضاف الى هذا ان قادة الرأي مما اتصفوا بالكياسة واللياقة وحسن الادارة فقد كان على داي الجزائر ان يباشر علاقاته مع فرنسا دون وساطة اليهوديين ، وكان في استطاعة الداي ان يكون احسن تصرفاً في معامله الرسول المفاوض الفرنسي ظناً منه ان ذلك سيرغم فرنسا على احترامه وتقديره والنزول عند رأيه .



الجزائر تحت الحكم الفرنسي

كثرت هجرة الفرنسيين الى المستعمرة الجديدة ـ الجزائر ـ بعد عام ١٨٣٤ وحسب الفرنسيون انها تكفي لفيض السكان ولاشباع جوع الفرنسيين ولارواء مصانعهم بالمعادن والمواد الخام فنهجوا سياسة ابداعية في هذا القطر ليست على نمط السياسة التي سارت عليها بريطانيا في مستعمراتها ولا على النمط الذي سارت عليه فرنسا نفسها في مستعمراتها السابقة مثل كندا والهند وانما هي فلسفة استعمارية جديدة نتجت عن ضياع آمال فرنسا بالاستعمار وعن نشوة ظفر الفتح في الجزائر فجاءت على شكل نظام استغلالي حرصت فرنسا فيه على فرنسة الجزائر بما في هذه الكلمة من معنى ومن هنا شق الامر على الجزائر ومن هنا عز على الجزائر ان تتخلص من نير الاستعمار الفرنسي رغم كل الثورات التحريرية التي قامت ورغم كل الاضاحي التي قدمها الشعب الجزائري .

وفي الصفحات التالية سنرى نمطاً من الاسس التي سار عليها الاستعمار الفرنسي في الجزائر .

آ- السياسة العقارية والزراعية وطريقة انتزاع الاراضي :

عرفت الزراعة طريقها الى القطر الجزائري في القرن الثاني قبل الميلاد ولكن القبائل الرحل احتفظت بطابع الملكية الجماعية في الاراضي والماشية على السواء بعد ان نزع اهل قرطاجنة الذين احتلوا الجزائر اراضي السكان الاصليين .

وكذلك فعل الرومان من بعد فأستولوا على الاراضي وقاموا بزراعتها لمصلحة الاشراف والقادة العظام .

وفي القرن السابع للميلاد أتم العرب فتح الجزائر فأعادوا اليها نظام الملكية الجماعية والفردية ، ثم جاء الترك العثمانيون في القرن السادس عشر فانـــتزعوا الارض من اصحابها الشرعيين بحجة سداد ما عليها من عوائد ثم تقاسمها السلطان مع مواليه الذين كانوا يحكمون البلاد باسمه !

والذين كانوا يحرصون على بقـاء الاراضي في اسماء ابنائهم كانوا يقفونها على ذراريهم كما كان يفعل الاوروبيون في القرون الوسطى اذ يضعون املاكهم تحت اشراف الكنيسة فراراً من دفع الضرائب الباهظة فنظام الوقف الذري هذا ، انتشر في كل بلاد المشرق والمغرب رغم ما فيه من مساوىء حتى تم الغاؤه في سوريا عام ١٩٥٠ . والى جانب نظام الوقف كان في الجزائر نظام آخر من الملكية يدعى نظـام العشور تحدث عنه المؤلف الفرنسي (ديمونيدس) في كتابه « الذكرى

المئوية لفتح الجزائر » وهو ان يترك الداي ارض رئيس القبيلة الثائرة عليه يستغلها فقط دون ان يملكها . ولما احتل الفرنسيون الجزائر لم يعدم فقهاء الحقوق منهم نظريات وضعوها لتبرير نزع ملكية اراضي العشور بالجملة لصالح المستعمرين الفرنسيين الجدد القادمين للاستيطان ، وقد لاحظ عدد كبير من فقهاء القانون الفرنسيين خطل هذه النظرية فقالوا انما وضعت لتبرير غرض غير شرعي ، وان اراضي العشور ملك شائع بين افراد القبائل لا يمكن انتزاعها منهم وانتزاعهم منها ومن هؤلاء الفقهاء : موريس واهل ، عمانوئيل بيسون ، لويس فثيون ، اندريه جوايان .

والى جانب هذين النظامين كان نظام الملكية الفردية قائماً في الجزائر وكانت معظم الاراضي بين ايدي الاقطاعيين ، وفيما يلي توزيع للاراضي في الجزائر قبل العدوان الفرنسي .

اراضي عشور جماعية	٥	ملايين هكتار
اراضي تملكها القبائل	٣	» »
اراضي في حيازة العرب	١،٥	» »
اراضي اوقاف	٣	» »
اراضي يملكها الداي	١،٥	» »
صحراء	٢٣	» »

ويقول « ايميه سيزار عن حالة الاراضي بعد دخول الفرنسيين ان /٨٠،٠٠٠/ اوروبي يملكون /٢٠/ مليون هكتار

و /٩،٠٠٠،٠٠٠/ جزائري يملكون /٩/ ملايين هكتار وارض الجزائري قليلة الخصب وارض الفرنسي طيبة حسنة الغلال غالية الثمن اما كيف حصل الفرنسيون على هذه الملكيات الكـــبرى فلنترك الجنرال « برو Bro » يقص في رسالة لاخيه بتاريخ ١٨٣٤ هذه القصة .

« ... وتسألني اين صار الاستعمار انني اقول حتى الآن اقتصر على امتلاك الاراضي ؛ اننا نلعب هنا على الارض كما نلعب في البورصة على اسهم المداخيل والمشروبات والبن !. وقد تتعجب اذا قلت لك ان « بليدا » قد بيعت لالوف المستعمرين قبل ان نفتحها ونحتلها وهؤلاء المشترون يتلذذون بمشاهدة ممتلكاتهم التي اشتروها من خلال النظارة المكبرة ! فسهول الميتيدجا وهي عبارة عن بحيرات واسعة تبلغ مساحتها /٣٠٠/ ميل مربع قد بيعت ايضاً . وقد بيعت ثلاث مرات على الاقل ياعزيزي وسوف تندلع المناوشات عندما يأتي المشترون للاستلام ! ..) ومع كل هذا فان المادة الخامسة من اتفاقية التسليم التي وقعها الجنرال بورمون وداي الجزائر تنص على ان يتعهد القائد العام بعدم المساس بملكية السكان الجزائريين لما تحت ايديهم من الاراضي ولكنه عهد كبقية عهود فرنسا يحتاج الى ضمانة !..

وبدأت عمليات نزع الملكية وطرد اصحاب الاراضي الشرعيين منها غداة توقيع الاتفاقية ، فأول مرسوم وقعه القــائد

العام كان بمصادرة املاك الاتراك الجزائريين لصالح الدولة الجديدة ثم امر بالاستيلاء على العقارات الموقوفة على المساجد والخيرات فزاد عدد المتسولين عدداً ملحوظاً حيث انقطعت عنهم الخيرات وكتب كريستيان الفرنسي يقول .

« ... لقد تمت غداة توطدت اقدام الفرنسيين في ارض الجزائر عدة صفقات مريبة انتهت الى مصادرت املاك الجزائريين بحجة الآمر على قوات الاحتلال والاعتداء على حرماتهم وسوقهم كالانعام بغير شفقة ولا رحمة ودون ستر عورات نسائهم حيث حشروا بالسفن التي ابحرت بهم الى المنفى وكان كل مالك منهم يحمل في يمينه عقداً بالتنازل عن ارضه اكره على توقيعه وفي يده الاخرى دراهم معدودات نالها كتعويض عن املاكه المصادرة .

وقد جاء في محاضر اللجنة الملكية التي اوفدت الى الجزائر للتحقيق عما ارتكبه جيش الاحتلال وصفاً دقيقا لهذه العمليات :

« ... في يوم وليلة اصبحت مدينة الجزائـــر مسرحا للصفقاف المريبة والغش والتدليس فما كان على الانسان لكي يصبح مالكا الا ان يثي بأخيه ويلصق به تهمة معارضة الاحتلال فيصبح في اليوم التالي مالكا لارضه بقوة الجيش الفرنسى فهل ذهبنا الى هذه البلاد لتوطيد دعائم الحضارة ام لاهراق الحقوق ؟ لقد منح الفرنسيون سندات ملكية لاراض لم يروها بأعينهم ولا يفلحونها ولا يزرعونها بل اصبحوا سادتها .

وبمرسوم (جنتي دي يوسي) الذي صادر كل ارض لم يبرز صاحبها سنداً (مع ان الاراضي هناك كانت تتوارث بالعرف والعادة دون اسناد) صادرت قوى الاحتلال مليوني هكتار بدون مسوغ قانوني . اما الملكية الجماعية قد اعترف القانون لاصحابها بحق الانتفاع دون الملكية ذاتها ، وضمت الدولة اليها :

١- الاملاك العامة حسب القوانين الفرنسية حصون وطرق واراضي لا مالك لها ومباني حكومية وتركات لا ورثة لها.

٢- الاراضي البور وما سبق الاستيلاء عليه من املاك الدايات .

٣- جميع الاعيان الموقوفه على الحرمين وفقراء المدينة المنورة .

٤- املاك الاتراك المبعدين عن الجزائر بعد فتحها .

٥- الاعيان التي استولت عليها السلطات بالمرسوم ٣١ تشرين الاول سنة ١٨٤٥ وتبلغ مساحتها حوالي ٢ مليون هكتار وقد ورد على لسان وزير الحربية في ذلك الحين انه يجب القضاء على الشعب الجزائري او على الاقل تشريده في داخل البلاد واحلال جاليات اوروبية مكانه في القرى والمدن الساحلية .

ومن تقرير اللجنة الملكية التي اوفدها شارل العاشر بتاريخ ٧ تموز سنة ١٨٣٣ يتضح لنا جلياً بعض الاعمال الوحشية التي ارتكبها الافرنسيون في الجزائر .

« ... تأملنا ملياً كيف كانت قوات الاحتلال تعامل الاهالي الوطنيين لاتضح لنا جلياً ان مسلكها لم يكن يتنافى مع ابسط قواعد العدالة فحسب بل كان يتعارض كذلك مع ما يمليه العقل والحكمة .

ولقد اهدرت السلطات الفرنسية حقوق الشعب وداست مقدساته وسلبت حرياته وبعد ذلك راحت تطالب الامة بالاخلاد الى السكينة والكف عن المقاومة بل لقد ضمت السلطات الفرنسية اعيان الاوقاف الدينية الى مصلحة الاملاك واعتـــدت على الملكية الفردية وصادرت اموال طبقة من الشعب سبق ان بذلت لها الوعود باحترام اوضاعها القائمة .

وقد دنس جنودنا المساجد ونبشوا القبور وانتهكوا حرمات منازل المسلمين ، واذا كانت ضرورات الحرب تقضي باتخاذ بعض التدابير القاسية احياناً فان اللجنة ترى ان تحاط هذه التدابير بغلالة رقيقة (كذا) من الرحمة تخفف من بشاعتها ولكن سلطات الاحتلال لم تفعل شيئاً من هذا بل ذهبت الى حد تعذيب افراد ثبت بعد وفاتهم انهم ابرياء ومع هذا حــــرم اعقابهم من تركات مورثيهم ، وقد ذبح الجنود الفرنسيون اشخاصاً يحملون جوازات مزورة صادرة من سلطة الاحتلال العليا وقضوا عليهم دفعة واحدة على جماعات وافراد لمجرد شبهات واهية حامت حولهم ثم اتضحت بعدئذ براءتهم ، كما اعدمت السلطات الفرنسية شيوخاً من اولياء الله الصالحين لانهم تجرأوا على الشفاعة لمواطنيهم . وكان على منصة

القضاء رجال يمثلون العدالة الفرنسية واصدرت السلطات اوامر باعدام ابرياء من شيوخ القبائل لانهم آووا جنوداً فرنسيين فروا من الخدمة وانعمت السلطات على الخونة الذين باعـــوا بلادهم باسم المفاوضات .

وجملة القول فانّ قواتنا فاقت بتصرفاتها الوحشية جرائم البرابرة الذين ذهبت قواتنا فيما تزعم لتحمل اليهم نور المـــدنية فكيف يشكون من مقاومة الجزائريين للاحتلال الفرنسي بعد هذا ! » انتهى تقرير اللجنة الملكية المنصف .

وفي مجلس النواب الفرنسي صرح النائب دي ساد في جلسة ٢٨ نيسان سنة ١٨٣٤ (بأن سلطات الاحتلال هدمت مدينة الجزائر وحدها (٩٠٠) بيت ودون سابق انذار ودون تعويض واستولت على ستين مسجد لاستخدامها في اغراض عسكرية ونبشت القبور بحجة البحث عن الاسلحة) ثم قال النائب الفرنسي (لقد كانت الجزائر محاطة بالحدائق الغناء والدور الانيقة فأصبحت قاعاً صفصفاً ينعق فيها البوم) ولهذه الاعمال الوحية استشهد في الجزائر اكثر من مليوني شهيداً دفاعاً عن البلاد خلال الاحتلال الطويل .

وانقلبت الحكومة في فرنسا كما مر وتشكلت الامبراطورية الفرنسية الثانية امبراطورية نابوليون الثالث وقد كان عهد هذه الامبراطورية ضغثاً على اباله كما يقال في الجزائر .

لقد قررت هذه اللجنة فيما قررت ان لا يبقى لصاحب الارض من ارضه الا الجزء المزروع منها ولم تترك من المراعي الا مساحات قدرت بنسبة رؤوس الماشية المسجلة في دفاتر الضرائب فالتي لا تدفع عنها ضريبة لا ترعى .

كما اعتبرت من اراضي العشور ـ اي للدولة ـ كل ارض لا يملكها صاحبها منذ ثلاثين سنة فنزعت تصرفات الملكية التي لا يحمل اصحابها مستندات ، ولكن الامبراطور رفض هذا التقرير نكاية بالافرنسيين الجزائريين الذين لم يصوتوا له بالاستفتاء الذى اجراه . فسياسة فرنسا في الاراضي والعقارات اذن كانت تهدف بالدرجة الاولى الى انتزاع الاراضي والعقارات من اصحابها لتملكها الدولة وبالتالي لتئول الى المستعمرين الفرنسيين هبة او باسم المدنية او باثمان بخسة . وقد ذكر (ديمونتيس) في كتابه (اقتصاد الجزائر) في الصفحتين ١٠٤، ١٠٥ ان توزيع الاراضي في الجزائر كان على الوجه التالي حسب احصاء سنة ١٩١٧ .

١- املاك الدولة ٤٤،٥ ٪

٢- 〃 الاوروبيين ١١،١ ٪

٣- 〃 الجزائريين ٥٥،٤ ٪

ثم تغيرت النسب حسب احصاء ١٩٢٩ فأصبحت على الوجه التالي :

١ـ املاك الدولة ٥٤ ٪

٢ـ املاك الاوروبين ١١،٢ ٪

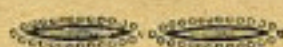
٣ـ املاك الجزائريين ٣٤،٨ ٪

مع العلم ان الاستعمار يمد الاوروبيين على حساب اهل البلاد بالمعونة الفنية والمالية ويزودهم بالآلات الزراعية .



٢ـ الاوضاع الادارية

بذل المستعمرون كل جهد لاستغلال الجزائر اسوأ استغلال فالميزانية يقررها مجلس نصف اعضائه من الفرنسيين والنصف الآخر من الجزائريين الموالين للفرنسيين وما يدفعه الاوروبيون من ضرائب وهم قرابة المليون يعادل ما يدفعه الجزائيون وهم قرابة /١١/ مليون نسمة ومعنى ذلك ان لدخلهم يفوق عشرة اضعاف دخل المواطن الجزائري . يضاف الى ذلك ان التجارة والصناعة والمواصلات كلها في ايدي الغزاة الفاتحين الغاصبين اما الجزائريون فهم الكادحون المستهلكون للمنتجات الفرنسية التي فرضها الاستعمار وحماها من المنافسة الاجنبية فالاستعمار هناك قائم على السطو على الاملاك والاستغلال الاقتصادي بالاستيلاء على المواد الاولية وفتح الاسواق لتصريف المنتجات فالقروض ورخص الاستيراد للجزائريين الفرنسيين ، والضرائب الفادحة وعزل الموظفين والمصادرة والاغلاق من نصيب الجزائريين الاصليين .



٣ـ الاوضاع الاجتماعية

تعيش في الجزائر طائفتان مستعمرون فرنسيون ومستوطنون اوروبيون وطائفة الجزائريين اهل البلاد الشرعيين وهم اغلبية ساحقة ويزعم الفرنسيون ان سكان الجزائر لا يؤلفون وحدة عنصرية وتتكون امتهم من عناصر متنافرة : بربري ، وميزاني ، وفرنسي ، وشاوي ، وعربي ، وتركي وزنجي وهو زعم باطل لان الاسلام ـ كما في بقية البلاد المفتوحة ـ وحَّد بين سكان الجزائر وطبعهم على لسان واحد ودين واحد وقومية واحدة منذ اكثر من عشرة قرون وكلما ازداد الاستعمار ظلماً وقسوة ازداد الجزائري ايماناً بوحدته وتماسكا بقوميته واخوته مع بقيه احزاء العالم المغربي شرقاً وغرباً .

والجزائريون اليوم صف واحد وشعور واحد وتفكير واحد في سبيل نيل استقلالهم واسترداد حريتهم ، عربهم وبربرهم باتجاه واحد وهدف واحد هو التخلص من الحكم الفرنسي الثقيل الظل مهما كانت النتائج والتضحيات والاقلية الاوروبية في الجزائر وعددها قرابة /٨٠٠/ الف /٦٠٠/ الف منها تحمل الجنسية الجزائرية يجمعهم ايضا شعور واحد هو بغضهم لعرب الجزائر

وتتحد كلمتهم على شيء واحد هو اضطهاد العرب والتنكيل بهم في كل فرصة ومناسبة .

ويزداد عدد سكان الجزائر بما يتراوح بين ١٥٠ - ٢٠٠ الف نسمة سنوياً وذلك لكثرة تناسل الجزائريين لا لقلة الوفيات ، لعدم توفر الوقاية الناجعة ، ولو سمحت القوانين الى العرب من غير الجزائريين باستيطان الجزائر كما يسمح للاوروبيين لتضاعف عدد العرب في الجزائر ولكن القوانين الاستعمارية تحول دون ذلك .

ومنذ عهد الاحتلال يعمل المستعمر جاداً بشتى الوسائل والطرق على ابادة اهل البلاد الشرعيين كما انه يشجع على هجرة الاوروبيين بما يقدم لهم من امتيازات وتسهيلات ولكن الشعب الجزائري رغم كل هذا ظل محتفظاً بخصائص جنسه وصفاته الرفيعة وهو يقاوم ، وينمو ، ويتكاثر ، ويزداد قوة وتفوقاً على العناصر الاجنبية الدخيلة .

آ- الاسلام

وتعرف فرنسا تمام العرفان ان الاسلام هو العامل الرئيسي في تكوين ذاتية الجزائريين وشخصيتهم فتحرص وهي ابنة الكنيسة الكاثوليكية على مواصلة الجهاد في سبيل محو هـــذه الذاتية ، ومحاولاتها في ذلك ظهرت في ربطها الشئون الدينية بسلطانها مباشرة ومبدأ فصل الدين عن الدولة الذي اعلنته الجمهورية الفرنسية يطبق على فرنسا فقط فكأنه بضاعة للاستهلاك المحلي كما قال غامبيتا

في احدى خطبه :

« فالدولة في الجزائر تنفق على المعابد الكاثوليكية والبروتستانتية واليهود ثلاثه اضعاف ما تنفقه على المساجد الاسلامية بعد ان وضعت الاوقاف تحت ادارتها . »

مع ان المعتنقين للاسلام الجدد يزيدون على اية نسبة من المعتنقين للاديان الاخرى ، رغم محاولات المبشرين المسيحيين التي تتلخص بتنصير الجزائريين كما جاء في البرنامج الذي وضع اسسه (لافيجري) الكردينال سنة ١٨٦٧ حيث جاء فيه : (. . يجب ان نجعل من الامة الجزائرية مهداً لامة مسيحية كريمة وان نضيء ارجاءها بنور مدينة وحيها الانجيل وان نربط مصير افريقيا بمصير الامم المسيحية تلك هي رسالتنا الآلهية) . وقد سار الآباء اليسوعيون على هذا النهج فنشطوا لمحو معالم الاسلام وتنصير الشباب الجزائري مستغلين حالة الشقاء والبؤس التي يعانيها ومعتمدين على المعونات الادبيه والمادية التي تقدمها للمسيحية الادات الفرنسية .

ومن هذا كانت محاولة القضاء على القضاء الشرعي ولما صعب ذلك ضيقت دائرة صلاحياته حتى اقتصر على الاحوال الشخصية والميراث ، كان يحق لمدعي المسلم مراجعة المحاكم الفرنسية في قضايا المحاكم الشرعية اذا اراد .

ويضيق المجال عن تعداد المحاولات المخجلة السيئة التي اراد الفرنسيون بها محو معالم الاسلام والقضاء على دين الجزائر .

ب ـ الحالة الصحية

وعمد الاستعمار الفرنسي الى افناء الشعب الجزائري عن طريق آخر فلم يهتم بالاحوال الصحية بين الجزائريين بعد ان عم الفقر مساكنهم واحياءهم وعجزوا عن مداواة مرضاهم في المشافي الخاصة ، وصرفت الدولة كل اهتمامها الى الاحياء الاوروبيـــة وخصصت لها كل الاعتمادات لمكافحة الامراض السارية وتيسير الخدمات الاجتماعية .

وعلى العكس فعوضاً عن ان تكافح فرنسا الامراض لا كواجب سياسي وانما كعمل انساني نقلت الى البلاد امراضاً جديدة لم يعرفها الشعب قبل الاحتلال الفرنسي كامراض الزهري والسيلان وما شابهها من الامراض التي اصبحت اليوم من اكبر الآفات الصحية والاجتماعية الخطره على حياة الشباب الجزائري واكبر دليل على التأخر الصحي في الجزائر هو ان عدد الاطباء في سائر انحاء الجزائر لا يتجاوز /٦٠٠/ طبيباً بمعدل طبيب واحد لـكل عشرين الف تقريباً .

وقد شهد لويس شوفاليه في كتابه مشكلة السكان في شمال افريقيا انه لما توطنت اقدام الاستعمار في الجزائر انتشر السل انتشاراً مروعاً .

واكد هذه الحقيقة الدكتور ليفي فالانس في محاضرة القاها عام ١٩٤٦ جاء فيها ان عدد الجزائريين المصابين بداء

السل يبلغ خمسة اضعاف المصابين من الاوروبيين المستوطنين هناك ويبلغ اكثر من عدد المصابين في كل فرنسا ذات الخمسين مليون من السكان . »

فكأن الحكومة هنا تسعى لنشر الامراض لتساعد على افناء الشعب الجزائري فتشجع بواسطة الافرنسيين المستوطنين على نشر الدعارة والكحول التي تهدم الصحة الاجتماعية هدماً . ولعل قله الوفيات تعود كما تحدث احد الاطباء هناك الى حيوية الجزائري ونظافة دمه وتمسكه بالدين الحنيف النظيف .

حـ - التعليم

وما كان نصيب التعليم في بلد الاحتلال الفرنسي بأوفى من نصيب الصحة فقد وزع التعليم بغير عدل واهمل الجزائريون وتقصدت فرنسا نشر الجهل بين طبقاتهم خوفاً من يقظة الاجيال الصاعدة وثورتها على الظلم الذى ترتكبه فرنسا في تلك البلاد العريقة في الحضارة والاستقلال والحرية وقد حرصت فرنسا على اهمال شئون اللغة العربية ومن هنا كان الجيل الذي عاش في اواخر القرن الماضي واوائل القرن الحاضر يجهل - كما تقول فرنسا - اللغة العربية لانها طبعته على طريقتها الجديدة في فرنسة الشعب الجزائري ، وقد اثبت الكاتب الفرنسي « بولار » بان الادارة الموكول اليها الاشراف على المدارس تضم افراداً لا اخلاق لهم حيث اختلسوا الاموال المخصصة لتعليم ابناء الشعب الجزائري .

وكتب ضابط افرنسي اسمه (رين) يقول ان فرنسا ضبطت جميع

موارد المدارس الموقفية وبذلك تضاءل عدد المدارس وبالتالي عدد الطلاب فأصبح ٣٠ الفاً بدلا من /١٥٠/ الفاً ، كانت وسائل التعليم مكفولة لهم قبل عهد الاحتلال وفرض على كل طالب رخصة مدرسة اهلية ان يأخذ موافقة الحاكم العسكري . وعلى كل معلم يريد التعليم ان يتقن اللغة الفرنسية بينما كان اكثر المعلمين من خريجي كلية الزيتونة او كلية القرويين التي ما كانت تدرس علومها باللغة الفرنسية آنذاك ، ولهذا أخرج عدد كبير من افاضل الناس وعلمائهم من مهنة التعليم واوكلت الى الشباب المتفرنس والغرض من هذا كله كما يظهر واضحاً قطع آخر رباط بين العروبة والمغرب العربي وتسهيل فرنسة الجزائرين فالمعاملات في الدوائر الرسمية باللغة الفرنسية واللغة في المدارس اللغة الفرنسية ، كما ان مقتضيات الحياة اليومية تتطلب في كثير من الاحيان التحدث بلغة المستعمر وهكذا اتصل بينهم وبين اللغة الفرنسية بقدر ما التوت السنهم باللغة العربية ولولا القرآن الذي يقرأه الجزائري في صلاته كل يوم ولولا المدارس القرآنية التي اوجدها زعماء الجزائريين كوسيلة من وسائل بث روح الكفاح في الشعب لاتممت اللغة العربية من الجزائر منذ عهد بعيد وهكذا كان لاحدى عشر مليون جزائري مئة الف تلميذ فقط في سبعمئة مدرسة رصدت لها اعتمادات تقدر بمبلغ ٦٨،٥ مليون فرنك .

وللمليون فرنسي واحد مائتا الف تلميذ من الف واربعمئة مدرسة رصدت لهم اعتمادات بمبلغ /٣٣٩/ مليون فرنك .

وما كان حال العمال بأحسن من حال الطلاب ، فالظلم الاجتماعي نال من هؤلاء نصيبه ايضاً فحرموا من المؤسسات النقابية الوطنية التي تتولى الدفاع عن حقوقهم والنقابات الموجودة الان تدين للمستعمر بوجودها فتخدم مصالحه صراحته وتلك هي مثل الاتحاد الفرنسي للعمال المسيحيين والاتحاد العام للعمال الكادحين اللذين لا يجمعان سوى المستخدمين الفرنسيين العاملين في المرافق العامة تمدها فرنسا بالمال وتغدق عليها المنح السنوية في حين تهذر حقوق ملايين العمال الجزائريين ولا يدافع عن حقوقهم احد .



الثورات في الجزائر

تمهيد :

بعد هذا الاستعراض الخاطف لاوضاع الادارة التي نظم بها الفرنسيون حكمهم في الجزائر نعود الى الحديث ثانية عن نضال الجزائر .

في الواقع ما خمد نضال الجزائر منذ دخلها الفرنسيون حتى الآن فالثورات فيها متتالية رغم عمليات القمع الجائرة ورغم الضغط الشديد الذي تقوم به السلطات المستعمرة ورغم الوسائل القهرية التعسفية التي تستعملها في خنق روح المقاومة لدى الجماهير المناضلة وبالتالي رغم الدعاية والاغراء والتبشير والاعتمادات التي تصرف في سبيل اجتذاب اكبر عدد ممكن من الجزائريين اصحاب الضمائر الرخيصة .

رغم هذا كله ففرنسا ما هدأت يوماً عن مقاومة حركة التحرير في الجزائر خاصة والمغرب العربي عامة حتى ان مجلس النواب الفرنسي كان يندد بالسياسة المتبعة في الجزائر ويطالب في كل مناسبة ولدى كل ازمة بضرورة حل مشاكل الجزائر حلاً

يرضي سكان الجزائر ووقار الاستعمار هناك ، ومن الصعب التوفيق بين النقيضين .

آ ـ ثورة عبدالقادر

وكانت فاتحة هذه المقاومة العنيفة للحكم الفرنسي ثورة عبدالقادر الجزائري التي خلدت انصع صفحة في التاريخ المغربي خاصة .

لقد لبت القبائل العربية الجزائرية فى الثاني والعشرين من تشرين الثانى سنة ١٨٣٢ دعوة رئيس قبيلة هاشم الامير محي الدين والد البطل عبدالقادر الجزائري بالاتفاق حول عبدالقادر لمقاومة الاحتلال الفرنسي الغاصب .

ومحي الدين هذا والد بطلنا ينتسب الى حكام دولة المرابطين وكان عبدالقادر قد أدى فريضة الحج مرتين وهو في الرابعة والعشرين من عمره وكان إلى تقواه بارعاً ذكياً شجاعاً فانضمت الى قبيلة هاشم المنضوية تحت لوائه قبيلة عامر ، وعمره لا يتجاوز الثانية والعشرين آنئذ وما هي الا فترة وجيزة من الزمن حتى اقصين الزعماء الاخرين عن ميدان المقاومة التحريرية وتزعم الحركة وحده وتسمى بأمير المؤمنين وبعضهم يقول السلطان كما كانت له البيعة بين الجنود ودعاء الى الجهاد ضد الفرنسيين .

وكانت في هذه الاثناء قد عمت الفوضى مقاطعة وهران

فاستغلها عبدالقادر وزحف لتوه وبما وصلت اليه يده من عتاد الحرب الخفيف واحتل مدينة معسكر في مقاطعة وهران بعد ان طرد الفرنسيين منها بعد معركة لاهبة واعلنها عاصمة للجهاد والكفاح وارسل بعدها الرسل والدعاة والبعوث الي القبائل المختلفة يستحثها فيها على الاسراع بالانضمام الى حركة اخذ الثأر والقضاء على الغزاة الاستعمارين البرابرة . واتصل بالوقت ذاته بسلطان مراكش مولاي عبدالرحمن آنذاك طالباً منه المعونة منضوياً تحت لوائه متخذاً لنفسه لقباً حياً له :

(خليفة السلطان المراكشي في الجزائر) بدلا من لقب سلطان العرب الذي بدأت القبائل تناديه به مضفياً بذلك على حركته صفة الشرعية التي يوفرها العمل تحت امرة دولة مراكش المعترف بها رسمياً من جميع الدول كدولة مستقلة ذات سيادة .

ولكن هذه الصرخة لم تلق اصداء طيبة من لدن السلطان المراكشي العربي ، وكان للنصر الذي احرزه عبدالقادر في معسكر اثره الكبير اذ دخل قائد وهران والجنرال دي ميشيل Des michal في مفاوضات معه ولكن فرنسا لم يرق لها هـــذا الاعتراف بقوة عبدالقادر الجديدة فاستبدلت دي ميشيل بالجنرال تريزل Trèsel الذي استخف بقوات عبدالقادر وحاول الاستيلاء على الجزء الداخلي من البلاد بقوات هزيلة ولكنه في ٢٦ تموز سنة ١٨٣٥ مني بهزيمة شنعاء عند نهر (المقطع) ويعرف ايضاً بنهر

هبرة بعد قتال عنيف خلال يومين عاد تريزل مؤمناً بقوة الجزائري وجلاً من حركة المقاومة ، وعد عبدالقادر في افريقيا الشمالية كلها حامي الاسلام ومنقذه بعد ذلك النصر المظفر وتعقب فرسان الجزائري فلول الجيش الفرنسي وكمنوا له في منعطف مرّ به الجيش الفرنسي المتراجع فأنقضوا عليه وقضوا عليه قضاء تاماً الا بعض جنود ارادهم عبدالقادر ان يعودوا ليخبروا زملائهم بما حدث .

عندئذ اضطرت فرنسا الى تعيين - كلوزيل الجلاد الفرنسي - ثانية في آب سنة ١٨٣٥ فوفق الى اخراج عبد القادر من معسكر ، وكان عبدالقادر في هذه الفترة قد استحصل على فتوى من علماء فاس عاصمه مراكش اجازوا بها لعبدالقادر جبايه الضرائب باسم سلطان مراكش لمتابعة حرب التحرير .

واحجمت الحكومة الفرنسية عن دفع نفقات الحملة الكبرى التي اعدها كلوزيل لهذا الغرض فتعين على كلوزيل ان يقتصر على فتح قسنطينة . والواقع ان فتح قسنطينه التي كان يحكمها الباي وحدها تم بمساعدة شاب وعده كلوزيل بحكمها اذا تم له فتحها بمعاونته يضاف الى ذلك ان اهالي قسنطينة كرهوا الداي . الباشا لما ابتز منهم من اموال .

وحسب كلوزيل انه بمقدوره الاستيلاء على البلاد كلها بحملة عددها سبعة آلاف مقاتل ، فأضطر في تشرين الثاني من

العام نفسه الى التراجع فعين مكانه بسبب هذا الاخفاق الجنرال دامريمون Damrémont وذلك في شباط سنة ١٨٣٧ فبادر الماريشال بوجو القائد العام الجديد للحملة الى انزال ضربات سريعة بعبدالقادر الذي اقلق المواقع الفرنسية في الغرب وكانت الحكومة الفرنسية راغبة بانهاء الحرب فطلب بوجو الى عبدالقادر الجزائري الصلح وذلك عند نهر (تافنا) او (طفنه) من ٣١ ايار ١٨٣٧ فقبل عبدالقادر الصلح وعقد معاهدة بينه وبين القائد الفرنسي، ولم تكن هذه المعاهدة من صالح فرنسا كما انها لم تضمن للامير كل ما يرجوة من مقاومة ويظهر انه قبل بها ليتأهب من جديد الى خوض معارك حاسمة يتم بها جلاء المستعمر الغاشم عن بلاده وقد استرد بموجب هذه المعاهدة الامير عبدالقادر معسكر ومقاطعة وهران جميعاً وجزءاً كبيراً من مقاطعة الجزائر ولكن حكومة فرنسا لم توافق على المعاهدة، وعندها اقام الجزائري اسساً ركيزة لحكمه في المشرق ايضاً فأرسل حكاماً من قبله الى كل من «مجانه» و «زيبان» و «لغواط» كذلك تقدم في الصحراء واقتحم في تشرين الثاني سنة ١٨٣٨ حصن (عين ماضي) بعد حصار دام خمسه اشهر وكان صاحب الحصن هذا احد المرابطين «محمد التجيني» الذى ناهض الجزائرى فقضى عليه خلال فترة الهدنه بينه وبين الفرنسيين وقد تمكن من انشاء الاسلحة وتدريب الجنود على الخطط والطرائق الاوروبية .

وفي اواخر ايلول سنة ١٨٣٧ سار دامريمون على راس اثني عشر الف مقاتل الى قسنطينة ثانية وبدأ قصف المدينة بالمدافع بتاريخ ٦ تشرين اول وحدد (دامريمون) ستة ايام لدخول المدينة ولكنه سقط صريعاً اثناء اعداده العدة لهذا الهجوم فخلفــه في القيادة فاليه Vallée ، وبعد معركة دامية دارت رحاها آخر الامر في الشوارع سقطت بعدها القصبة وهي الحصن المطل على المدينة في ١٣ تشرين الاول .

ومنذ ذلك الحين خط الاحتلال في البلاد خطوات واسعة الى الامام وانشئت (مدينة فيلب Philippe ville لتكون ميناء قسنطينة . ومن الجزائر احتل الفرنسيون ُبليدة التي عز عليهم فتحها في بدء الاحتلال وفي تشرين اول ١٨٣٩ صار في ميسور الجيوش الفرنسية الفاتحة ان تلتقي عبر جبال الاطلس .

واعتبر عبدالقادر تقدم الفرنسيين هذا نقضاً لمعاهدة تافنا فدعا في (المدّية) الى الجهاد ضد الفرنسيين فهاجم عامله (احمد بن سالم) مدينة (متيجة) وانقضت فترة المّ الخطر فيها بالجزائر ، وكانت حاميتها ضعيفة ولكن فاليه ما لبث ان هزم عبدالقادر عند (شيفّه) ثم احتل المدية في ١٨ مايس سنة ١٨٤٠ وفي اواخر العام عين بوجو حاكماً عاماً على الجزائر . وفي مطلع ربيع عام ١٨٤١ افتتح الحملة على عبدالقادر من المدية فانتصر عليه انتصاراً باهراً في ٤ ايار سنة ١٨٤١ ثم انه انقلب الى الشاطىء ليزحف من مستغانم الى الداخل كرة اخرى واحتل في ايار عاصمة عبدالقادر

الحديدة « تا كَنْدَمْتَ » .

وفي مطلع سنة ١٨٤٢ احتل بوجو تلمسان وفي ٩ شباط خسر الامير مدينة « سَبْدو » آخر مدنه المحصنة ومن ذلك الحين بدأت حركته بالانهيار .

وفي ١٦ مايس سنة ١٨٤٢ وفـــق دوق دومال Duc d'Aumal بعد زحف مستمر الى مباغتة العدو والتغلب عليه وهكذا سقطت اربعة آلاف من رجال الامير وسقطت امواله وعائلات عدد كبير من اتباعه سقطوا جميعاً في ايدي القوات الفرنسية ، فحسب الفرنسيون ان الاسد المحصور قد انهار وسوف يتوارى .

ولكن حرس عبدالقادر الذين استماتوا في الدفاع عنه أباجو له الفرص للافلات من الوقوع في قبضة العدو ليجد الامن في مراكش .

موقف مراكش

وفاوض بوجو المراكشيين في شأن تسليمه ولكن على غير طائل فلم يكن منه الا ان عبر الحدود بنفسه وكانت فرنسا ارسلت ثمان وعشرين قطعة بحرية من اسطولها منذ اليوم الاول من آب سنة ١٨٤٤ لترابط في مياه مدينة طنجة وراحت تنذر سلطان مراكش بوجوب التخلي عن الامير عبدالقادر وطرده من

البلاد المراكشية وصبت البوارج حممها على مدينة طنجة فنبهه السلطان الى ضرورة الاسراع بقبول الانذار ولم تسكت افواه مدافعها الا بعد ان دكت حصون المدينة العربية العزلاء .

واجتازت في الوقت نفسه قطع اخرى من الاسطول الفرنسي مضيق جبل طارق والقت مراسيها امام المرفأ المراكشي اغادير او « موغادور » وقصفته بالمدافع طيلة ساعات ثم انزلت اليه عدة فصائل من جنود البحرية فأحتلته بعد ان دافعت عنه حاميته العربية باسلحتها الخفيفة القديمة دفاعاً مجيداً واستشهدت كلها في مسجد المدينة الذي جعلت منه حصنها الاخير وقضى رجالها الابطال الميامين سجنهم في بيت الله زائدين عن العروبة فكانوا عند ربهم احياء .

وفي ١٤ آب سنة ١٨٤٤ دارت رحى معركة على وادي إيسلي احد روافد نهر تافنا بين الفرنسيين والجيش المراكشي وكانت عدته «٦٥» الف رجل تحت قيادة ابن السلطان ولم يكن تحت تصرف بوجو اكثر من ستة آلاف رجل ومع ذلك فقد استطاع ان يهزم الجيش المراكشي الكبير الضعيف السلاح الفاقد النظام وعندئذ اعلن السلطان استعداده لعقد الصلح وابرم معاهدة طنجة المعيبة مع فرنسا في ٢٦ تشرين الاول ١٨٤٤ ومن بنودها الرئيسية .

١ ـ حل الجيش المراكشي المرابط على طول الحدود الجزائرية المراكشية ، وهو نفس الشرط الذي قدمه بعد ست وسبعين سنة

الجنرال غورو لحكومة دمشق عام ١٩٢٠ والذي كان قبوله بداية فاجعة ميسلون » .

٢- اعتبار عبدالقادر خارج عن القانون والقاء القبض عليه او منعه من دخول الاراضي المراكشية .

٣- الاعتراف بالحدود المراكشية الجزائريه كما كانت قبل العدوان الفرنسي على الجزائر .

٤- معاملة فرنسا معاملة الدولة الاكثر رعاية في الشئون التجارية والسياسية ، وتابع الجزائـــريون المعارك في الوطن المراكشي دون معاونة السلطان المراكشي ففاز الجزائريون بمعركتين الاولى سيدي ابراهيم التي افنى بها عبدالقادر عدة آلاف من خيرة الجنود الفرنسيين ومعركة « قصر بني سنان » التي اضطر الجزائري فيها آلافاً اخرى للاستسلام صاغرين ، فاذن لم يسلم السلطان المراكشي عبدالقادر وانما تخلي عن مساعدته وفي الواقع لم يقو السلطان على تسليمه لان القبائل المجاورة لحدود الجزائر حمت عبدالقادر وما كانت تطيع كثيراً هذا السلطان الجبان .

وازكى اتباع الطرق ولا سيما «الدّرقاوا» نيران العصبية الدينية بين القبائل فتابعت حرب العصابات ضد الفرنسيين ، عندها عاود عبدالقادر الهجوم على الجزائر لتخليصها من ايدي المحتلين بحرب عصابات فوجه بوجو ثماني عشرة فـــرقة لمطاردته طوال الخريف والشتاء من سنة ١٨٤٥ - ١٨٤٦ ولكنها لم توفق الى

اللحاق به برغم ما استعمله من حرق للقرى الآمنة وتدمير المنازل وردم للابار لافناء الثوار عطشاً .

وعاد الجزائري الى المراكش مره اخري وتمكن ممثلو الحكومة الفرنسية من اقناع السلطان بضرورة توجيه جيش لاخراجه من البلاد عملاً بمعاهدة طنجة وفي ٢١ كانون الاول سنة ١٨٤٦ عبر الجزائري نهر ملويه القائم على الحدود تحت نيران القوات المراكشية فطوقته الجيوش الفرنسية فاستسلم في ٢٣ كانون الاول سنة ١٨٤٦ بعد ان وعد بنقله الى عكا او الاسكندرية اذ كان يرجو ان يؤدي فريضة الحج مرة اخرى ، ولكن الفرنسيين حملوه الى طولون ثم اسروه في قلعة امبواز وفي ٢ كانون اول سنة ١٨٥٢ فك نابوليون الثالث اساره فذهب الى تركيا حتى اذا وقعت زلازل سنة ١٨٥٥ اقام في استامبول ثم في دمشق وهناك قام بالعمل الانساني الكبير اذ انقذ النصارى المارونيين خلفاء فرنسا في الشرق من مذابح سنة ١٨٦٠ التي حدثت في لبنان على ايدي الدروز وتوفي عبدالقادر الجزائري في دمشق سنة ١٨٨٣ لقد كان سيفاً عربياً لا يفل وليثاً عربياً لا يقهر ورائداً من رواد الجهاد العربي في العصر الحديث فقدره خصومة قبل اصدقائه .

• • •

ب ـ لالا" فاطمة :

لقد استسلم عبدالقادر ولكن لم تستسلم الجزائر وأسر

عبدالقادر ولكن بعد ان خلف جيلا من الاحرار المناضلين عن بلادهم .

ففي سنة ١٨٥٧ ظهرت في قبيلة (يتني) نبية اسمها لالافاطمة فتبعتها القبائل المجاورة كلها وقد اضطر الحاكم العام راندون Randon ان يخرج بنفسه لقتالها على رأس ثلاثين الف مقاتل وبعد معارك دامية اسر لالا فاطمة واخضع القبائل اخضاعاً كاملا.

وفي جنوب الجزائر حيث عهد الفرنسيون بالحاكم الى عشيرة (اولاد سيدي شيخ) ومنحوها سلطات واسعة . وفي سنة ١٨٦٤ استشعر ثالث ممثلي هذه الاسرة (سي سليمان) أن كرامته قد مست بسبب سلوك بعض الضباط الفرنسيين فأعلن الثورة في شهر شباط بتحريض من عمه « سي لالا » فلم يكن من القائد العام (بوبريتر Beauprêtre)الا ان خف من (تيارت) لاخماد الثورة ، ولكن خيالته الوطنية خدعوه وفتكوا به وبفرقة المشاة التي كان يقودها وان يكن قد استطاع وهو في النزاع الاخير ان يطلق النار على (سي سليمان) الذي كان قائماً الى جانبه فيرديه صريعاً .

بيد ان مصرع (سي سليمان) لم يضع حداً للثورة فقد نهض بعبء القيادة من بعده اخوه محمد المريض (سي الازرق) .

وبالنظر الى ان نابوليون الثالث ارسل اقوى فرقة الى المكسيك والهند الصينية فقد استمرت الحرب فـــترة طويلة في

جنوبي الجزائر حتى ان زعيمي الثورة قد صرعا في شتاء ١٨٦٤ - ١٨٦٥ ولكن اتباعها المعتصمين بالجبال التي تعذر على الفرنسيين بلوغها لم يلقوا السلاح وكانوا يفزعون الى الارض المراكشية كلما انسوا خطر القوات الفرنسية وعلى الرغم من ان الجنرال ويمبفان Wimpfen انزل العقاب بحلفائهم سنة ١٨٧٠ فقد ظل الثوار يتراجعون شيئاً فشيئاً في الصحراء ولم يكن في الامكان اخضاعهم نهائياً الا في سنة ١٨٨٤ .

. . .

ح - ثورة المقراني :

بيد ان الهزائم التي نالتها فرنسا في حربها مع المانيا سنة ١٨٧٠ وتحولها الى النظام الجمهوري سنة ١٨٧١ انعشت في الجزائر آمالاً جديدة في الحرية والاستقلال ما كانت في الواقع اخصب من سراب مباديء الفرنسية .

لم تبدأ السنة الثانية من عهـــد الجمهورية حتى نشبت الاضطرابات بسبب تجنيد السباهيين وحشدهم على الحدود التونسية خاصة . وقد وجدت الحركة الجديدة زعيمها القوي في قيادة محمد المقراني باش آغا يؤيده اثنان من المرابطين ايضاً .

وكان المقراني ينتسب الى اسرة من اغنى الاسر وانبلها في مقاطعة قسنطينة ، وقد ساعد الفرنسيين في اول عهد الاحلال فأغدقت عليه الدولة الانعام والاوسمة جزاء ما ابداه نحوها من

اخلاص وولاء . ولكنه استقال من منصبه لانه ابى ان يطيع رئيساً يهودياً والواقع ان العامل الشخصي لعب دوره في قضيته الى جانب الاستياء السياسي . ففي اثناء مجاعة سنة ١٨٦٧ استدان اموالاً كثيرة ابتغاء مساعدة مواطنيه . ولم تف له الحكومة بالتعهدات التي اقتطعتها له ولبلاده وهكذا دعا القبائل الى اجتماع كبير عقده في منتصف اذار اعلن فيه الحرب على اقرب موقع عسكري . وفي ٨ نيسان انضم اليه قطب الطريقة الرحمانية الشيخ الحداد بعد ان حرضه على ذلك ابنة عبدالعزيز ، وما هي الا فترة حتى اشتركت قبائل البلاد كلها من البحر حتى الصحراء في القتال وطفق الثوار ينتشرون على مقربة من الجزائر وفي ٦ ايار سنة ١٨٧٢ قتل المقراني في معركة دارت رحاها في وادي (سفله) قرب اومال فقام مقامه اخوه الذي وقع اسيراً في ايدي الفرنسيين في ٢٠ كانون الاول سنة ١٨٧٢ في يد العدو قرب روليان .

الجهاد الجزائري في القرن الحالي ...

اما في القرن الحاضر فقد كانت الاحداث ثورة خالد الجزائري حفيد عبدالقادر الجزائري الهاشمي : اذ ارسلها صرخة مدوية سنة ١٩٣٠ بأن الجزائر قطر عربي صميم يسعى للاستقلال

عن فرنسا وينشد الحياة الحرة الكريمة وقد ودع الدنيا عام ١٩٣٧ دون ان تكتحل عيناه باستقلال بلاده .

وسلم الامانة بعد ذلك الى زعيم نضالي كبير هو (مصالي الحاج) الذي نادى بوحدة النضال في المغرب العربى بعد ان خضع المغرب العربي للاحتلال الفرنسي ولا غرابة ان ينادي المصالي بوحدة النضال فقد كانت الجزائر وتونس تؤلف وحدة سياسية منذ القديم تحت سياسة المرابطين بين ١٠٥٥ - ١١٤٧ فالموحدين ١١٤٧- ١٢٦٩ فبني مرين ١٢٦٩ - ١٥٥٠ ولم تنفصم عرى هذه الوحدة إلا عندما وقع الغزو التركي والغزو الاوروبي .

وغرض الحزب الجديد انشاء اتحاد من المغرب العربي تضم كل اجزائه ويوحد هدفه بتحرير اراضيه من الاستعمار الفرنسي والاستغلال الاقتصادي بالوانه .

وقد الف (مصالي الحاج) حزب الامة الجزائري وجمع فيه النخبة المختارة من ابناء الجزائر وباشر معها نشاطه الحزبي الوطني على الصعيد الشعبي الجماهيري بحماسة بالغة وايمان قوي بمستقبل الوطن المغربي .

واقد تفنن الاستعمار الفرنسي في وضع الخطط والمشروعات للقضاء على الشعب الجزائري او على الاقل لتشويه معالم شخصية ولعل اشنع محاولة قامت بها السلطات الغاصبة مشروع (بلوم-فيوليت) الصادر عام ١٩٣٦ والقاضي بتقسيم الجزائر الى طائفتين احداها

تنتسب الى فرنسا وتحمل جنسيتها والثانية لم تبلغ بعـــد في نظر فرنسا مرتبة الشرف لتحظى بالرعوية الفرنسية . وتطور حزب الامة الجزائري الى حزب نجم الشمال الافريقي فاكتسح تيار الحزب الجديد الفئات الخارجة عن رأي الامة ، ولكن سرعان ما حلت فرنسا هذا الحزب عام ١٩٢٧ فتشكل سراً حزب جديد باسم حزب الشعب الجزائري شعاره « الجزائر بلادنا والعربية لغتنا والاسلام ديننا ويحيا المجاهدون الاحرار ويموتون في سبيل نصرة الوطن والدفاع عنه » وقد تحددت اهداف الحزب : بالاستقلال التام والسيادة الكاملة والرفاهية الشاملة للشعب الجزائري اهداف لا يحيد عنها الحزب منذ نشأ .

. . .

وخمدت حركة المقاومة خلال الحرب العالمية الثانيـــة واستيقظت حركة النضال من جديد على اجراس الهدنه في ٨ مايس سنة ١٩٤٥ حيث كانت مبادىء مصالي الحاج قد اتت اكلها واثبتت مدى تقبل الشعب لها واستعداده للتضحية والبذل من اجلها وذلك في التظاهرات التي اقامها في ٨ ايار سنة ١٩٤٥ يوم اعلان استسلام المانيا في طول الجزائر وعرضها وطالب فيها فرنسا بالجلاء عن البلاد ، وكان اعظمها تلك المظاهرة التي مشى بها في شوارع سطيف هاتفاً بسقوط الاستعمار الفرنسي الغاشم داعياً الى فصل الجزائر عن فرنسا منقضاً على بعض المستوطنين الفرنسيين الذين ارادوا ان

ينزعوا من ايدي الوطنين اللافتات التي كانوا يعـــرضون عليها شعاراتهم الوطنية وقد أبيد من الفرنسيين في ذلك اليوم ثمانون علجاً ، فأمطرت فرنسا الجزائر بوابل من الطائرات والدبابات والمدافع تساعدها الطرادات من البحر واستباحوا بها السنغاليين ومرتزقة فرقهم الاجنبية الانذال مدينة سطيف وما حولها من السهول والانجاد وما تركوها الا بعد ان غدت قاعاً صفصفاً حيث اصطبغت ارضها بنجيع هذه المذبحة الهائلة ـ وحسب تقدير الصحف الامريكية آنذاك ـ بدم خمسين الف شهيد لا بدماء ثمانية آلاف فقط كما اعترف بعدئذ الفرنسيون .

وتفتقت عبقرية فرنسا في دستورها الجديد الذي ارادته لنفسها بعد الحرب والصادر في تشرين الثاني ١٩٤٦ عن نظام جديد للجزائر اصدر بقانون ٢٠ ايلول ١٩٤٧ قسمت فيه الجزائر الى ثلاث مقاطعات فرنسية واعتبر الجزائريون مواطنون من الدرجة الثانية وسمح لهم بانتخاب /١٢/ نائباً المجلس الوطني الفرنسي . ويحكم المقاطعات الجزائرية الثلاث حاكم فرنسي عام يساعده مجلس استشاري اعلى يعين اعضاءه المجلس الوطني الفرنسي .

ولكنها فشلت هنا كما فشلت في شن العدوان ، فلا الحديد والنار ولا النظام الجديد استطاعا ان يوهنا عزم الجزائريين الاحرار الذين وحدوا صفوفهم وعقدوا الخناجر على محاربه النظام الجديد وقد تجلى ذلك في الانتخاب المجلس الاستشاري حيث لم يقترع

اكثر من ٥٠ ٪ من مجموع الناخبين .

ومنذ مطلع عام ١٩٥٤ بدأت في الجزائر حركة جديدة منظمة سميت باسم جيش التحرير اظهرت البطولات الفائقة حتى شدهت السياسيين العالميين وقد اعلن راديو باريس يوم السبت في ٢٩ كانون الثاني سنة ١٩٥٥ « ان ثلاثة آلاف جندي فرنسي بدأوا اليوم المرحلة الثانية في هجومهم على الثوار في جنوب جبال « المرايس » وقد جاء هذا الهجوم في اعقاب الحملة التي شنها يوم الاربعاء الماضي خمسة آلاف جندي تؤيدهم الطائرات والسيارات المصفحة داخل هذه المنطقة الجبلية حيث يعتصم هناك ستمائة من الثوار وقد بدأ جنود الفرقة الاجنبية والرماة بمهاجمة المنطقة الجبليه عند فجر اليوم وكان على رأس القوة الفرنسية القائد « ميلت » قائد فرقة المظليين الخامسه والعشرين .

ولوحظ ان الثوار دافعوا ببسالة حتى انهم عززوا بنجدات من ثوار تونس ، وقد تحاشوا حتى الان الالتحام مع الفرنسيين في معارك كبيرة وقد تراجعوا الى حصونهم التي لا تستطيع القوات الالية الوصول اليها . »

وقد حددت الوزارة الفرنسية ليل الثالث من شباط لمناقشة بيان الحكومة حول برنامجها في المغرب العربي وطلبت على اثر هذا البيان وما تبعه من نقاش حاد الثقة فحجب المجلس الوطني الثقة عن وزارة (منديس فرانس) الذي يعمل بوحي أمريكا من

فرنسا ويحمي قواعدها في الجزائر كما يقـــول كتاب (حقائق جزائرية) الصادر عن (حركة انتصار الحريات الديمقراطية في الجزائر) هذا العام وسقطت وزارة فرانس صبـاح الخامس من شهر شباط ١٩٥٥ والمغرب العربي يتأجج بالثورة على الاستعمار الفرنسي .

وقد قررت الدول العربية رفع قضية الجزائر الى مجلس الامن باعتبارها حالة تهدد السلم العالمي كما جعلت الدول العربية شرطاً اولياً للاتفاق مع الغرب. حل قضايا العرب وفي طليعتها قضيتا فلسطين والمغرب العربي .



آراء في الكفاح الجزائري

١- كتب الكاتب الفرنسي (كلود بورديه) في جريدة الاوبسرفاتور الفرنسية مقالا قيما عن سوء ادارة حكومة فرنسا ومعالجتها لمشاكل الجزائر جاء فيه .

(... ولن ننسى ما قام به الجزائريون عام ١٩٤٥ من التظاهر والاحتجاج والحقيقة ايضاً وايضاً تقول ان ٤٠ الف مواطن في الجزائر قد ذبحهم الجيش المسمي بالفرنسي عام ١٩٤٥ بمعاونة المستعمرين المسلحين وكان ذلك جواباً على ثورة شبيهة بثورة اليوم وكانت اسبابها غامضة ولم تخل من تخد مفتعل ويستطيع الفرنسيون ان ينسوا ذلك بسهولة هذا إن نحن افترضنا معرفتهم لها اما عرب الجزائر فقد صمتوا على مضض ولكنهم لم ينسوا ذلك ابداً والحقيقة تقول ان الجزائر تعيش في ظل نظام بوليسي قد استعمل في السنوات القليلة الماضية جميع انواع الضغط والاكراه واساليب التعذيب التي لا تماثلها اساليب الغستابو وما زال هذا النظام يستخدم التجسس وشراء الضمائر والسجون كوسائل لتثبيت الحكم وما كانت الانتخابات الكثيرة التى جرت منذ ١٩٤٧ وفيها انتخابات ١٩٥٤ الا مهازل تضحك اكثر بكثير من التي تمثل وراء الستار الحديدي ! والحقيقة

تقول ايضاً ان بني (ديوي) عملاء فرنسا وزعماء الكرتون الذين ملئت صدورهم بالاوسمة الفرنسية والذين يمثلون بدورهم مجلس النواب الجزائري يمثلون شعب الجزائر تماماً كما كانت تمثل فرنسا اشباح فيشي ابان الاحتلال الالماني. والحقيقة تقول ايضاً ان الاستقرار والسلام الذي كان يسود الجزائر احياناً لم يكن سوى نتيجة النظام الارهابي والوسائل التي استخدمت بلباقة وكان هذا الاستقرار المصطنع حجة في ايدي الحاكمين للابقاء على الاصلاحات المشلولة .

والحقيقة بعد هذا كما يقول الجزائريون يجب ان تسمّر الآمال في اجساد شعب الجزائر حتى تستطيع بعد ان (تؤمن بفرنسا) ! ان الشعب الجزائري بائس يائس مخدوع ونحن سبب ذلك كله وهذا هو السبب الاول لهذه الحرب التي بدأت في جبال اهراس (العرايس) كما كان السبب تماماً في محاولة الاغتيال التي قام بها البورتوريكيون في بلادهم وفي نيويورك بؤس اخف وطأة من بؤس شعب الجزائر بان الاستعماريين الفرنسيين لا يريدون الحرية للمغرب العربي لانها تعني نهاية ارباحهم الفاحشة ولهذا هم يخلقون في الجزائر وضعاً غير قابل للتسوية اطلاقاً فاياكم وانصاف الحلول .

لقد جرب الهولنديون في اندونوسيا سياسة انصاف الحلول فزادت ضراوة نضال الشعب الاندونوسي .

والحل الوحيد لقضايا المغرب العربي عامة هو تجنب الحديد

والنار كما فعل الانكليز في الهند والكف عن مقاومة الفدائيين وحل مجلس النواب الجزائري المزيف واجراء انتخابات صحيحة تبدأ بعدها الاصلاحات . ان المغرب على مفترق الطرق وعلينا ان نختار له الطريق) .

٢- واذاع مكتب المغرب العربي بدمشق نداء صدر بتاريخ ٢٥ تشرين الثاني عام ١٩٥٤ يصور حالة الجزائر خاصة وحالة المغرب العربي عامة جاء فيه ما يلي :

(... ان هيئة الجزائر ومشاركتها في سلسلة جهاد المغرب الشاق لا تحملان في معناهما مضاعفة القوى الموجهة ضد الاستعمار فحسب بل تدلان على مدى اصالة الحرية المتغلغلة في اعماق ابناء ذلك الجزء من الوطن العربي .

ليست قصتنا في المغرب سوى جزء من قصة الوطن العربي الذى تتالى عليه ظروفه العاثرة .

ان قضية الامة العربية قضية واحدة ويكفي ان يتكاتف الشعب العربي في جهوده حول جزء منها حتى يتم تكاتفه حول القضية بكاملها . القضية هي قضية استعمار متماسك مرتبطة اجزاؤه ببعضها البعض والعربي الذي يحاول القضاء عليه في المغرب يحاول القضاء عليه في اية بقعة من بقاع الوطن العربي ، اننا نهيب بكل عربي لهذا السبب ان يلتفت الى قضية المغرب ويهتم بها ويحاول المساهمة في جهادنا قضيتنا واحدة ولو كانت آلامنا في المغرب اعنف واشد .

(ثم يسهب الحديث عن نضال الشعب المغربي في تونس ومراكش الى ان يصل الى الجزائر فيقول :)

... اما بالنسبة الى الجـــزائر فالحالة اشد سوءاً لان الفرنسيين يعتبرون الجزائر جزءاً من فرنسا وجزءاً دون سكان اذ ليس للجزائرى حق المواطن الفرنسي الا ما يطبق عليه من قانون العقوبات الفرنسي ضد كفاحه معتـــبراً النضال في سبيل الاستقلال خيانة عظمى . وفي الجزائر الان ما يربو على /١٢٠/ الف جندي من بينهم فرق المظلات وفرق مدربة على حرب العصابات وهذه الفرق مجهزة بالاسلحة الفنيه الحديثة من مدافع ثقيلة وطائرات وغيرها . وتتخذ حركة التحرير في الجزائر مركزاً هاماً هو جبال أهراس او العرايس الواقعة في منطقة قسنطينة وهي منطقة جبلية وعرة ذات غابات كثيفة تبلغ مساحتها /١٢٠٠٠/ كيلو متر مربع وتنتشر فيها قرى يبلغ عدد سكانها /٢٠٠،٠٠٠/ شخصاً وتزعم المصادر الفرنسية ان كتائب التحرير لا تسيطر الا على خمسين الف من هذا العدد .

لقد وصلت الثورة في الجزائر الى مرحلة النضوج الى المرحلة الطيبة المتفائلة وذلك بشهادة العدو من خـــلال الكتابات الكثيرة التي تصف بها جريدة الفيغار الفرنسية ولاموند الفرنسية اعاجيب اعمال كتائب التحرير .

انتهى

جدول الخطأ والصواب

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
٤	٨	انقلاب	انفلات
١٠	١٧	منهاجر	فهاجر
١٧	٤	الاسلام	الاسبان
٢٦	١٥	صلكه	مملكه
٣٧	١١	هذا	ساعد على هذا
٤٥	٦	فأجدت	فأوجدت
٥١	٢	أبى	حيث أبى
٥١	٧	صرفه	صرف
٥٣	٧	مما	ما
٦١	١٥	اوحية	الوحشية
٦٥	١٠	اخرته	اخوته
٦٥	١٠	المغربي	العربي
٧٠	١٦	لاتمت	لانمحت
٧٣	١٥	حين اقصين	حتى اقصى
٧٧	٨	خط	خطا

الفهرس

ترقبوا في الاجزاء التالية :

٢ ـ العراق في نضاله الاخير

٣ ـ مصر تقارع الاستعمار

٤ ـ ليبيا والتاج الادريسي

٥ ـ البحرين جنة العرب

٦ ـ . . . .

وكتب اخرى تبحث في نضال العرب في التاريخ الحديث وتصور اعمال الاستعمار الازرق .

منشورات دار الثقافة العربية



منشورات

دار الثقافة العربية

ثمن النسخة ٧٥ غ.س

